

أفضل الكتب مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

باراك أوباما

أحلام من أبي

قصة عرق وإرث



”كِتَابٌ بِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَنَفَازِ الْبَصِيرَةِ مَا يَجْعَلُهُ يُخَبِّرُكَ
شَيْئًا عَنْ نَفْسِكَ سِوَاءِ أَكُنْتَ أبيضَ أم أسودَ.“

ماريان رايت إيدلمان



أحلام من أبي

أحلام من أبي

قصة عرق وإرث

تأليف

بارك أوباما

ترجمة

هبة نجيب السيد مغربي
إيمان عبد الغني نجم

مراجعة

مجدى عبد الواحد عنبه



Dreams from My Father A Story of Race and Inheritance

Barack Obama

أحلام من أبي
قصة عرق وإرث

باراك أوباما

الطبعة الخامسة ٢٠١١م

رقم إيداع ٢٠٠٩/٨٤٥١

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعتبر الكتاب عن آراء مؤلفه

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١ فاكس: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١

البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.kalimat.org>

برنامج الكتاب العربي (Arabic Book Program (ABP))

بالتعاون مع برنامج الكتاب العربي بالسفارة الأمريكية في القاهرة، وهو برنامج يعمل مع

دور نشر مصرية على ترجمة ونشر كتب تعبر عن الثقافة والقيم الأمريكية

الموقع الإلكتروني: <http://egypt.usembassy.gov/pa/rbo.htm>

Arabic Language Translation Copyright © 2010-2011 by Kalimat Arabia

Dreams from My Father © 1995, 2004 by Barack Obama.

All Rights Reserved.

الولايات المتحدة، رؤساء الجمهورية (باراك حسين أوباما)

أحلام من أبي: قصة عرق وإرث / باراك أوباما - القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٩

٢١٠ ص، ١٤، ٥ × ٢١ سم

تدليك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٦٣ ٢٩ ١

١- أوباما، باراك حسين ١٩٦١

٢- الولايات المتحدة الأمريكية، رؤساء الجمهورية

أ- العنوان

٩٢٣، ١٧٣

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية،
ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة
نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

«لَأَنَّا نَحْنُ غُرَبَاءُ أَمَامَكَ، وَنُزِلَاءُ مِثْلِ كُلِّ آبَائِنَا.»
أخبار الأيام الأول ٢٩ : ١٥

مقدمة طبعة عام ٢٠٠٤

مر ما يقرب من عقد من الزمان منذ نُشر هذا الكتاب للمرة الأولى. وكما أذكر في التمهيد الأصلي، تسنت لي فرصة تأليف هذا الكتاب وأنا في كلية الحقوق بعد انتخابي أول رئيس أمريكي من أصل أفريقي لمجلة «هارفارد لو ريفيو». ففي أعقاب نيلى نصيبًا متواضعًا من الشهرة تلقيت عرضًا من أحد الناشرين وحصلت منه على دفعة مقدمة من مبلغ التعاقد، وبدأت العمل وأنا أؤمن أن قصة عائلتي، ومحاولاتي لفهم تلك القصة، قد تخاطب بصورة ما صدوع العنصرية التي كانت سمة التجربة الأمريكية، وأيضًا حالة الهوية غير الثابتة — القفزات عبر الزمن وتصادم الثقافات — التي تمثل سمة حياتنا العصرية.

وعلى غرار من يؤلف كتابًا للمرة الأولى غمرتني مشاعر الأمل واليأس فور نشر الكتاب، أمل في أن يحقق الكتاب نجاحًا يتجاوز ما يجول في أحلامي الشابة، ويأس من أن أكون قد فشلت في أن أقول شيئًا كان ينبغي أن أقوله. أما الحقيقة فكانت تقع في مكانة بين هذا وذاك؛ فجاءت المقالات النقدية عن الكتاب إيجابية شيئًا ما، وكانت الجماهير تحضر بالفعل الندوات التي نظمها الناشر وتجري فيها قراءة أجزاء من الكتاب. لم تكن المبيعات مبهرة. وبعد بضعة أشهر مضيت قدمًا في حياتي المهنية وكلي ثقة بأن مستقبلي في تأليف الكتب سيكون قصيرًا، لكنني كنت سعيدًا بأنني خضت تلك التجربة وخرجت منها دون مساس بكرامتي.

لم يتسن لي الكثير من الوقت للتفكير طوال السنوات العشر التالية، فقد أدرت مشروعاً لتسجيل الناخبين في دورة انتخابات عام ١٩٩٢م، وبدأت العمل محامياً في مجال الدفاع عن الحقوق المدنية، وشرعت أدرس مادة القانون الدستوري في جامعة شيكاغو. واشترت أنا وزوجتي منزلاً، ورزقنا بطفلتين رائعتين ومشاعبتين تتمتعان بصحة جيدة، وكنا نجاهد لدفع تكاليف معيشتنا. وعندما أصبح أحد المقاعد في المجلس التشريعي في ولاية إلينوي شاغراً عام ١٩٩٦م، أقنعني بعض الأصدقاء أن أشرح نفسي، وبالفعل فزت بالمقعد. حذرني البعض قبل أن أشغل المنصب من أن السياسات داخل الولاية تفتقد إلى البريق الذي يشع من نظيرتها في واشنطن، فالمرء يكبح لكن وراء الستار، وغالباً في موضوعات تعني الكثير للبعض ولكن رجل الشارع يمكنه أن يغض طرفه عنها دون أن يشوب تصرفه هذا شائبة (مثل اللوائح المتعلقة بالنازل المتنقلة، أو التداعيات الضريبية لانخفاض قيمة معدات الزراعة). ومع ذلك وجدت العمل مرضياً، غالباً لأن نطاق السياسات داخل الولاية يسمح بالتوصل إلى نتائج ملموسة — توسيع خدمة التأمين الصحي لتشمل أطفال الفقراء، أو تعديل القوانين التي تتسبب في إرسال الأبرياء لصفوف الموت — في ظل إطار زمني معقول. وأيضاً لأنه بداخل مبنى المجلس التشريعي لولاية صناعية كبيرة مثل إلينوي يرى المرء كل يوم وجه أمة في حوار مستمر: أمهات من الأحياء المكتظة بالسكان، ومزارعي الذرة والفلو، والعمال المهاجرين الذين يعملون باليومية، إلى جانب المصرفيين في البنوك الاستثمارية في الضواحي، جميعهم يتدافعون ليحصلوا على فرصة لسماعهم، وجميعهم مستعدون بقصص ليروونها.

قبل بضعة شهور فزت بترشيح الحزب الديمقراطي لمقعد في مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية إلينوي. كان سباقاً صعباً في ساحة تزدهم بالمرشحين الماهرين البارزين الذين يحظون بتمويل كبير. وكان يُنظر إلي — وأنا رجل أسود له اسم مضحك لا يحظى بأي دعم مؤسسي ولا يمتلك ثروة شخصية — على أن إمكانية فوزي مسألة بعيدة المنال. وهكذا عندما فزت بأغلبية الأصوات في الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطي،

في مناطق البيض والسود على حد سواء، وفي الضواحي وكذلك في شيكاغو، كان رد الفعل الذي تلا هذا يشبه رد الفعل الذي تلا انتخابي رئيسًا لمجلة «هارفارد لوريفيو». وقد عبر معظم المعلقين المعروفين عن دهشتهم وأملهم الحقيقي في أن يشير انتصاري إلى تغير كبير في سياساتنا العنصرية. وفي مجتمع السود كان هناك إحساس بالفخر تجاه الإنجاز الذي حققته، فخر يمتزج بخيبة الأمل لأنه بعد خمسين عامًا من قضية براون ضد مجلس التعليم، وبعد أربعين عامًا من إقرار قانون حق التصويت، لا نزال نحتفل بإمكانية (وفقط إمكانية، لأنه كانت لا تزال أمامي انتخابات عامة صعبة قادمة) أن أكون الأمريكي الوحيد من أصل أفريقي في مجلس الشيوخ والثالث على مدار التاريخ منذ مرحلة إعادة التأسيس التي تلت الحرب الأهلية الأمريكية. انتابتنى، كما انتابت عائلتي وأصدقائي، مشاعر الحيرة من هذا الاهتمام، وكنا دائمًا نعي الفرق بين بريق تقارير وسائل الإعلام وحقائق الحياة العادية الفوضوية كما نعيشها في الواقع.

وبالضبط مثلما أثارت تلك الموجة من الشهرة اهتمام الناشر قبل عقد من الزمان تسببت هذه الجولة الجديدة من الأخبار الصحفية في إعادة نشر الكتاب مرة أخرى. ولأول مرة منذ سنوات أخذت نسخة من الكتاب وقرأت بعض الفصول لأرى إلى أي مدى تغير صوتي بمرور الزمن. وأعترف أنني كنت أشعر ببعض الخجل من حين لآخر كلما رأيت كلمة أسأت اختيارها أو جملة مشوهة أو تعبيرًا عن العاطفة يبدو متلطفاً أو مبالغاً فيه. وكانت داخلي رغبة ملحة كي أحذف من الكتاب ما يقرب من خمسين صفحة، فقد أصبحت أميل كثيراً إلى الاختصار. ولكنني لا أستطيع حقاً أن أقول إن الصوت الذي يتردد في الكتاب ليس صوتي، وإنني كنت سأكتب القصة بصورة مختلفة إلى حد بعيد اليوم عما كتبتها قبل عشرة أعوام، حتى وإن كانت بعض الفقرات ثبت أنها غير مناسبة سياسياً، وهو ما يخلق ساحة لتعليقات الخبراء وأبحاث المعارضة.

ما تغير بالطبع تغيراً شديداً وقاطعاً هو السياق الذي قد يُقرأ فيه الكتاب الآن. لقد بدأت أكتب في ظل خلفية يميزها وادي السليكون، وازدهار

البورصة، وانهيار سور برلين، وخروج مانديلا من السجن بخطى ثابتة متأنية ليقود دولة، وتوقيع اتفاقيات السلام في أوسلو. وعلى المستوى المحلي بدت المناظرات الثقافية، حول الأسلحة والإجهاض وموسيقى الراب، قوية للغاية لأن سياسة بيل كلينتون «الطريق الثالث»، وهي سياسة دولة الرفاهية المتقلصة التي تفتقد الطموح العظيم وتعوزها القوة الحازمة، بدت أنها تصف إجماعاً ضمنياً واسع النطاق على المسائل المتعلقة بقوت الحياة اليومية، إجماع ستوافق عليه حملة جورج دبليو بوش في فترة رئاسته الأولى بسياستها «المحافظة الرحيمة». وعلى المستوى العالمي أعلن المؤلفون نهاية التاريخ، وبزوغ نجم السوق الحرة والديمقراطية الليبرالية، وزوال الكراهيات القديمة والحروب بين الأمم ليحل محلها المجتمعات العملية والمعارك من أجل الحصول على نصيب في السوق.

ثم في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م تمزق العالم. ومهارتي في الكتابة لا تؤهلني لوصف ذلك اليوم، والأيام التي تلتها، كانت الطائرات مثل الأشباح تختفي بين الحديد والزجاج، انهيار البرجين كشلال يتدفق بالتصوير البطيء، أناس يكسوهم الرماد يهيمون في الشوارع، والألم والخوف. ولا أظاهر بأني أفهم العدمية الشديدة التي كانت تحرك الإرهابيين في ذلك اليوم والتي لا تزال تحرك إخوانهم اليوم. وقدرتي على التقمص، على الوصول إلى قلوب الآخرين، لا يمكن أن تخترق تلك النظرات الخاوية لأولئك الذين غمرتهم مشاعر الارتياح الهادئة غير المنطقية وهم يغتالون الأبرياء.

ولكن ما أعرفه هو أن التاريخ قد أعاد ذلك اليوم حاملاً معه الانتقال، وأنه في الحقيقة، كما يذكرنا فوكنر إن الماضي لا يموت أبداً ولا يدفن تحت الثرى، بل إنه حتى ليس ماضياً. هذا التاريخ الجماعي، هذا الماضي، يمس ماضي مباشرة. ليس فقط لأن قنابل القاعدة قد تركت بصماتها بدقة غريبة على بعض معالم حياتي؛ المباني والطرق والوجوه في نيروبي وبالي ومانهاتن، ولم يكن ذلك فحسب لأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول تسببت في أن يصبح اسمي هدفاً لا يقاوم للسخرية من أنصار الحزب

الجمهوري شديدي الحماس، بل أيضاً لأن الصراع الضمني - بين عوالم الرخاء وعوالم الفقر المدقع، بين الحديث والقديم، بين الذين يعتنقون تنوعنا الشديد والمتضارب والمسبب للمشكلات ويتمسكون بمجموعة من القيم التي تربطنا معاً، وأولئك الذين يسعون، تحت أية راية أو شعار أو نص مقدس، إلى يقين وتبسيط يبرران القسوة تجاه من ليسوا مثلاً - هو الصراع الموضح على نطاق أصغر بين دفتي هذا الكتاب.

أعلم، ورأيت بنفسي، اليأس والاضطراب الذي يشعر به العاجز، كيف يشوهان حياة الأطفال في شوارع جاكرتا أو نيروبي بالطريقة نفسها تقريباً التي يشوهان بها حياة الأطفال في الجزء الجنوبي من شيكاغو، كيف يكون الطريق ضيقاً بالنسبة لهم بين الذل والغضب العارم، كيف ينزلون بسهولة إلى أحضان العنف واليأس. أعلم أن رد فعل من يمتلك القوة على هذه الفوضى - الذي يكون إما رضا متبلد الحس أو، عندما تزيد تلك الفوضى عن حدودها، تطبيقاً صارماً غير عاقل للقوة، وإصدار أحكام بالسجن لمدد أطول، ومزيد من العتاد الحربي المتطور - غير مناسب لهذه المهمة. وأعلم أن التعصب واعتناق الأصولية والقبلية يحكم علينا جميعاً بالهلاك.

وهكذا تحول ما كان مجهوداً داخلياً شخصياً من جانبي لفهم هذا الصراع والعتور على مكاني فيه ليلتقي مع مناظرة شعبية أوسع مجالاً، مناظرة تورطت فيها مهنيّاً، مناظرة ستشكل حياتنا وحياة أطفالنا لسنوات طويلة قادمة.

أما التداعيات السياسية لكل هذا فهي موضوع كتاب آخر، فدعوني أنتهي بدلاً من هذا بملحوظة شخصية: معظم شخصيات هذا الكتاب تظل جزءاً من حياتي، وإن كان بدرجات متفاوتة، عملاً وأطفالاً وجغرافية ومصائر.

الاستثناء الوحيد هو أمي، التي فقدناها بسرعة وحشية بسبب مرض السرطان بعد بضعة أشهر من نشر هذا الكتاب.

كانت قد قضت السنوات العشر السابقة تفعل ما تحب، فكانت تجوب العالم تعمل في القرى النائية في آسيا وأفريقيا تساعد النساء على شراء

ماكينات خياطة أو بقرات حلوب أو الحصول على فرصة للتعليم قد تمنحهن موطئ قدم في اقتصاد العالم. وكان لديها أصدقاء من كل مكان، وكانت تتنزه سيراً على الأقدام وتحقق في القمر وتبحث في الأسواق المحلية في دلهي أو مراکش عن شيء صغير مثل وشاح أو قطعة حجرية منحوتة يجعلها تضحك أو يسعد ناظرها. وكتبت التقارير وقرأت الروايات وأزعجت أطفالها وحلمت بأحفاها.

كنا كثيراً ما نرى بعضاً، فصلتنا لم تنقطع، وخلال تأليف هذا الكتاب، كانت تقرأ المسودات وتصحح القصص التي أسأت فهمها، وتحرص على عدم التعليق على وصفي لها لكن تهرع إلى تفسير أو دفاع عن الصفات الأقل جاذبية في شخصية أبي. وقد تعاملت مع مرضها بلطف ودعابة، وساعدتني أنا وأختي على أن نستمر في حياتنا، رغم خوفنا ورفضنا وانقباضات قلبينا المفاجئة.

في بعض الأحيان أفكر أنني لو كنت أعلم أنها لن تنجو من مرضها كنت سأكتب كتاباً مختلفاً، أقل تأملاً في الأب الغائب، وأكثر حفاوة بالأم التي كانت موجودة دائماً في حياتي. وإنني أراها في ابنتي كل يوم، فرحتها وقدرتها على التعجب، ولن أحاول أن أصف كيف لا أزال في غاية الحزن لرحيلها. وأعرف أنها كانت أطيب وأكرم روح عرفت في حياتي، وأني أدين لها بأجمل ما في.

تمهيد

اعتزمت في الأصل تأليف كتاب مختلف تمامًا، وقد لاحت أول فرصة لتأليف هذا الكتاب وأنا ما زلت طالبًا في كلية الحقوق بعد انتخابي أول رئيس أسود لمجلة «هارفارد لوريفيو»، وهي مجلة قانونية غير معروفة إلى حد بعيد خارج الوسط القانوني. وتبع انتخابي هذا موجة مفاجئة من الشهرة حيث نُشرت عدة مقالات في الصحف التي شهدت للمكانة المتميزة لكلية الحقوق بجامعة هارفارد في المعتقدات الأمريكية، وكذلك توق أمريكا الشديد لأية إشارة تدعو إلى التفاؤل على جبهة العنصرية؛ أي دليل بسيط على أن هناك تقدمًا أُحرز، أكثر من شهادتها لإنجازاتي المتواضعة. واتصل بي بضعة ناشرين ووافقت، وأنا أتخيل أن لدي شيئًا جديدًا يمكن أن أقوله عن الوضع الراهن للعلاقات العنصرية، أن أقتطع عامًا بعد التخرج وأنقل أفكاري إلى الورق.

وفي ذلك العام الأخير من الدراسة في كلية الحقوق بدأت أرتب في ذهني، بثقة مخيفة، كيف سيسير العمل في الكتاب بالضبط: مقال عن قصور التقاضي بشأن الحقوق المدنية في تحقيق المساواة العنصرية، وأفكار عن معنى المجتمع وإصلاح الحياة العامة عن طريق القاعدة الشعبية من المجتمع التي تحتاج إلى تنظيم، وأفكار عن سياسة العمل الإيجابي لتحسين أحوال الأقليات والتركيز على الهوية الأفريقية، وملأت قائمة الموضوعات صفحة كاملة. وكنت سأضيف بالطبع بعض النواذر الشخصية وأحلل أسباب المشاعر التي تنتابني بصورة متكررة. ولم يكن الأمر بصفة عامة إلا رحلة فكرية كاملة تخيلتها لنفسِي، بالخرائط ونقاط التوقف ووضع خط

السير الدقيق، اعتزمت أن ينتهي الجزء الأول في مارس/آذار وأن أرسل الجزء الثاني للمراجعة في أغسطس/آب ...

ومع ذلك فعندما جلست وبدأت أكتب وجدت عقلي ينجرف إلى شواطئ أكثر اضطراباً؛ فقفزت مشاعر اشتياق قديمة لتجتاح قلبي، وظهرت أصوات بعيدة وخفتت، ثم عادت لتظهر مرة أخرى. تذكرت القصص التي كانت أمي ووالداها يقصونها عليّ وأنا طفل، قصص عائلة تحاول تفسير نفسها. وتذكرت عامي الأول كمنظم للمجتمع الأهلي في شيكاغو، وخطواتي المتعثرة تجاه مرحلة الرجولة، وسمعت صوت جدي وهي تجلس أسفل شجرة مانجو تضفر شعر أختي وتصف لي الأب الذي لم أعرفه حق المعرفة قط. ومقارنة بذلك الفيضان من الذكريات، بدت جميع نظريات المرتبة واهية وغير ناضجة. ومع ذلك ظللت أقاوم بشدة فكرة عرض ماضي على صفحات كتاب، ذلك الماضي الذي جعلني أشعر أنني عارٍ، بل أشعر بالخزي بعض الشيء، ليس لأن ذلك الماضي مؤلم بصورة خاصة أو غير لائق، بل لأنه يخاطب تلك الجوانب من ذاتي التي تقاوم الاختيار الواعي والتي تناقض — على الأقل ظاهرياً — العالم الذي أعيش فيه الآن. وعلى أية حال أنا الآن في الثالثة والثلاثين من عمري أعمل محامياً نشطاً في الحياة الاجتماعية والسياسية في شيكاغو، المدينة التي اعتادت جراحها العنصرية وتفتخر للغاية بافتقارها للعاطفة. فإذا كنت قادراً على مقاومة اليأس والشك فإنني مع ذلك أحب أن أرى نفسي حكيماً في الحكم على العالم وحريصاً على ألا أتوقع الكثير. ومع ذلك فإن أكثر ما يدهشني عندما أفكر في قصة عائلتي هي تلك السلسلة الممتدة من البراءة، براءة لا يمكن تصورها حتى بمقاييس الطفولة، لكن أحد أقرباء زوجتي فقد هذه البراءة بالفعل وهو لا يزال في السادسة من عمره؛ إذ أخبر أبويه قبل بضعة أسابيع أن بعض زملائه في الصف الأول رفضوا اللعب معه لأن بشرته سوداء حالكة. ومن الواضح أن أبويه — اللذين ولدا وترعرعا في مدينتي شيكاغو وجاري — قد فقدوا براءتهما قبل ذلك بوقت طويل، ومع أنهما لم يظهرأ استياءهما — فكلاهما يتمتع بالقدر نفسه من القوة والفخر وسعة الحيلة مثل كل الآباء الذين

أعرفهم — فإن المرء يسمع نبرة الألم التي تتردد في صوتيهما وهما يعيدان النظر في فكرة انتقالهما من المدينة إلى ضاحيةٍ معظم قاطنيها من البيض، وقد انتقلا لحماية ابنهما من احتمال أن يقع ضحية تبادل لإطلاق النيران بين العصابات، ولثقتهما بأنه سيتلقى تعليمه في مدرسة لا تحظى بالتمويل المادي الكافي مما يجعلها متواضعة المستوى.

إنهما يعرفان الكثير، فقد رأينا جميعاً الكثير، ولناخذ قصة زواج والديّ القصير — رجل أسود وسيدة بيضاء، أفريقي وأمريكية — دليلاً على ذلك، ونتيجة لذلك الاقتران يجد بعض الناس صعوبة في تقبلي؛ فعندما يكشف البعض ممن لا يعرفونني معرفة وثيقة — البيض أو السود على حدٍّ سواء — قصة عائلتي (وعادة ما يكون هذا اكتشافاً بحق إذ إنني توقفت عن إعلان عرق أمي وأنا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمري عندما بدأت أشك أن في هذا تودد وتملق للبيض)، أرى التغيير الذي يستغرق جزءاً من الثانية الذي عليهم أن يقوموا به، وبحثهم في عيني عن أية إشارة لكشف مكنون نفسي؛ إنهم لم يعودوا يعرفون من أنا، وأظن أنهم يفكرون في أنفسهم في قلبي المضطرب والدم الخليط والروح الممزقة والصورة المخيفة للإنسان الخليط البائس المولود من أب زنجي وأم بيضاء الذي يقع أسيراً بين عالمين. وإذا كنت أنوي أن أقول لهم لا، المأساة ليست مأساتي، أو على الأقل ليست مأساتي وحدي، إنها مأساتكم يا أبناء بلايموث روك^١ وإيليس آيلاند^٢، إنها مأساتكم يا أطفال أفريقيا، إنها مأساة قريب زوجتي ذي السنوات الست وزملائه البيض في السنة الأولى، ومن ثم فإنكم لستم بحاجة لأن تتخيلوا ما يكرر حياتي، فإنه يظهر في النشرة المسائية ليراه الجميع، وإننا إذا كان بإمكاننا الاعتراف على الأقل فإن الدائرة المأسوية ستبدأ في الانكسار ... حسناً، أظن أنني أبدو شديد السذاجة، أتمسك بأمال ضائعة مثل أولئك الشيوعيين الذين يروجون صحفهم على أطراف كثير من المدن الجامعية، أو الأسوأ من هذا، أبدو وكأنني أحاول الاختباء من نفسي.

^١ المكان الذي يفترض أن المهاجرين الأوائل نزلوا فيه في عام ١٦٢٠.

^٢ موقع آخر رئيسي للهجرة إلى أمريكا.

لا أستطيع انتقاد شكوك الناس، فقد تعلمت منذ وقت طويل أن أرتاب في طفولتي والقصص التي شكلتها، ولم أستطع أن ألتفت وأقيم هذه القصص القديمة لنفسى إلا بعد مرور سنوات كثيرة، بعد أن جلست على قبر أبي وتحدثت إليه عبر تربة أفريقيا الحمراء، أو كي أكون أكثر دقة، حينها فقط فهمت أنني قضيت جزءاً كبيراً من حياتي أحاول أن أعيد كتابة هذه القصص وأن أسد الثغرات في القصة، وأن أتكيف مع التفاصيل غير المحببة، وأن أسلط الضوء على الخيارات الفردية في مواجهة الانجراف الأعمى للتاريخ، كل هذا على أمل أن أستخرج لوحاً صلباً من الحقيقة يمكن أن يقف عليه أولادي — الذين لم يولدوا بعد — بأقدام ثابتة.

ثم في مرحلة ما، ومع الرغبة القوية في أن أحمي نفسي من التدقيق المفرط، ومع الحافز الذي كان يدفعني من حين لآخر إلى أن أترك المشروع بأكمله، فإن ما وجد طريقه إلى هذه الصفحات هو سجل لرحلة شخصية داخلية، رحلة بحث صبي عن والده، ومن خلال ذلك البحث يجد معنى عملياً لحياته كأفريقي أسود البشرة. وكانت النتيجة سيرة ذاتية، مع أنه كلما سألني أحد على مدار تلك السنوات الثلاث الأخيرة عن موضوع الكتاب، كنت عادة أتجنب استخدام هذا الوصف؛ فالسيرة الذاتية تُعدُّ بالحديث عن إنجازات جديرة بأن تسجل، وأحاديث مع مشاهير، ودور محوري في أحداث مهمة، ولا يوجد شيء من هذا في الكتاب. أو على الأقل، تعني السيرة الذاتية ضمناً أنها ملخص أو نهاية محددة وهو ما لا يناسب شخصاً في مثل عمري لا يزال منشغل الذهن برسم الطريق الذي سيسلكه في العالم. إنني حتى لا أستطيع أن أعتبر تجربتي تمثل تجربة الأمريكيين السود (كما أوضح لي ناشر من مناهاتن: «فرغم كل شيء، إنك لا تنتمي إلى خلفية محرومة ومعقدة») وفي الواقع فإن تعلم قبول تلك الحقيقة بالذات — أنني يمكنني معانقة إخوتي وأخواتي السود سواء في هذا البلد أو في أفريقيا، والتأكيد على وجود مصير مشترك دون أن أنظاھر بالتحدث إلى، أو عن، جميع صراعاتنا المختلفة — جزء مما يدور حوله هذا الكتاب.

وفي النهاية هناك المخاطر المتأصلة في تأليف أية سيرة ذاتية؛ إغراء أن يلون المؤلف الأحداث بالطريقة التي يفضلها هو، والنزعة للمبالغة في تقدير أهمية تجربة الفرد للآخرين، وزلات الذاكرة المتعمدة. وتتعاظم مثل هذه المخاطر عندما يفتقد الكاتب إلى الحكمة التي يكتسبها المرء بتقدم العمر، أي المسافة التي يمكن أن تداوي المرء من الخيلاء، ولا يمكنني أن أقول إنني تجنب كل هذه المخاطر بنجاح، أو أيًا منها. ومع أن جزءًا كبيرًا من هذا الكتاب يعتمد على تسجيل متزامن للأحداث أو التاريخ الشفهي لعائلي فإن الحوار تقريب ضروري لما قيل بالفعل أو ما روي لي. وبدافع الاختصار فإن بعض الشخصيات التي ظهرت ما هي إلا مركب من أناس عرفتكم، وبعض الأحداث تظهر خارج الترتيب الزمني الدقيق لها. وباستثناء عائلي وحفنة من الشخصيات العامة فإن أسماء معظم الشخصيات قد غُيّرت للحفاظ على الخصوصية.

ومهما كان الوصف الذي سيلتصق بهذا الكتاب؛ سيرة ذاتية أم مذكرات أم تاريخ أسرة أم شيئًا آخر، فإن ما حاولت أن أفعله هو كتابة سرد صادق لجزء محدد من حياتي. وعندما شررت بذهني استعنت بوكيلة أعمال جين ديستل لإخلاصها وصلابتها، وبالمحرر هنري فيريس لتصحيحاته التي يقدمها بأسلوب لطيف لكن حازم، وبروث فيسيش وفريق العمل في شركة تايمز بوكس لحماستهم واهتمامهم بالاعتناء بالنص في مراحل المختلفة، وبأصدقائي، ولا سيما روبرت فيشر، لقراءتهم الكريمة للنص، وبزوجتي الرائعة ميشيل لخفة ظلها ورقتها وصراحتها وقدرتها على دفعي للأمام.

لكنني أدين بعميق الفضل لعائلي، أُمي وجدي وجدتي وإخوتي المنتشرين عبر المحيطات والقارات، وإليهم أهدي هذا الكتاب. فبدون حبهم ودعمهم المستمرين، وبدون استعدادهم لأن يتكوني أحدث بلسانهم وتسامحهم مع ما أقع فيه من أخطاء بين الحين والآخر، لم يكن بإمكانني حتى أن أمل أن أنتهي من الكتاب. وأتمنى أن يسطع الحب والاحترام، إذا لم يكن شيء آخر، اللذين أشعر بهما تجاههم على كل صفحة من صفحات هذا الكتاب.

الباب الأول

الجزء

الفصل الأول

بعد بضعة أشهر من عيد ميلادي الحادي والعشرين، جاءني اتصال من شخص غريب ليبلغني الخبر. كنت أعيش في ذلك الوقت في نيويورك في شارع رقم أربعة وتسعين بين الجادتين الثانية والأولى، وهو جزء من ذلك الحد المتغير الذي لا يحمل اسمًا بين شرق هارلم وباقي مانهاتن. كان شكل المجمع السكني غير جذاب ويخلو من الأشجار والنباتات، تصطف على جانبيه مبانٍ سكنية طلائُها أسود وبلا مصاعد تلقي بظلال كثيفة معظم أوقات اليوم. كانت الشقة صغيرة وأرضيتها مائلة ودرجة حرارتها غير مستقرة ولها جرس كهربائي أسفل المبنى لا يعمل، ومن ثم كان على أي زائر أن يتصل قبل مجيئه من هاتف عمومي في محطة البنزين في زاوية الشارع، حيث كان يوجد كلب أسود من نوع دوبرمان في حجم الذئب يقطع المكان جيئةً وذهابًا طوال الليل في دورة حراسة يقظة، يقبض بفكيه على زجاجة جعة فارغة.

لم أكن أهتم بذلك كثيرًا فلم أكن أستقبل الكثير من الزوار، في تلك الأيام كنت ضيق الصدر، مشغولًا بالعمل وخطط لم تُنفذ، وأميل إلى اعتبار الأشخاص الآخرين مصدرًا لتشتيت الانتباه لا ضرورة له، وليس ذلك لأنني لا أقدر الرفقة؛ فقد كنت أستمتع بتبادل الدعايات باللغة الأسبانية مع جيراني الذين كان أغلبهم من بورتوريكو، وفي طريق عودتي من المحاضرات كنت عادة أتوقف لأتحدث مع الصبية الذين كانوا يقضون وقتهم عند مدخل المبنى طوال فترة الصيف يتحدثون عن فريق نيكس لكرة السلة أو الطلقات

النارية التي سمعوها الليلة السابقة. وعندما يكون الطقس جيدًا يمكن أن أجلس أنا ورفيقي في الشقة على سلم الحريق ندخن السجائر ونتأمل الغسق وهو يغرق المدينة في الظلام، أو نشاهد البيض من المناطق السكنية الأفضل بالقرب منا يسرون بكلابهم أسفل العمارة التي نقطن فيها ويتركون الحيوانات تتبرز على حافة رصيف الشارع، كان رفيقي يصرخ فيهم بغضب مؤثر: «تخلصوا من هذا البراز أيها الأوغاد!» وكنا نسخر من وجهي السيد الأبيض والحيوان وهما يتجهمان دون إبداء أية نية للاعتذار وينزلان على ركبتيهما للقيام بفعلتهما.

كنت أستمع بتلك اللحظات، ولكن لوهلة قصيرة، فإذا بدأ الحديث يخرج عن مساره أو يعبر الحدود التي تفضي إلى الشعور بالألفة والحميمية، كنت سريعًا ما أجد سببًا للانصراف؛ فقد أصبحت أشعر براحة شديدة في عزلتي، فهي آمن مكان عرفته.

أتذكر رجلًا عجوزًا كان يعيش في الشقة المجاورة يشاركني نزعتي، كان ضامر الجسد منحني الظهر يعيش وحده، يرتدي في المناسبات القليلة التي يترك فيها غرفته معطفًا أسود ثقيلًا وقبعة قبيحة الشكل، وبين الفينة والفينة كنت ألتقي به مصادفة وهو عائد من المتجر، وكنت أعرض عليه أن أحمل عنه البقالة في رحلة الصعود الطويلة على سلالم العمارة، فكان ينظر إلي ويهز كتفيه ونبدأ الصعود وكنا نتوقف على كل بسطة كي يلتقط أنفاسه، وعندما نصل في النهاية إلى شقته أضع الحقائب بحرص على الأرض ويومئ لي شكرًا قبل أن يجر قدميه إلى داخل شقته ويغلق مزلاج الباب، لم يدر بيننا أي حديث قط، ولم يقل لي أبدًا كلمة شكر على صنيعي.

كان صمت الرجل العجوز يثير إعجابي فكنت أراه قريبًا مني روحياً، وفيما بعد وجده رفيقي في الشقة ملقى على بسطة سلم الطابق الثالث وعيناه مفتوحتان عن آخرهما وأطرافه متيبسة ومتكورة كطفل صغير، تجمع الناس حوله، وحركت بعض النساء أيديهن بعلامة الصليب على أجسادهن وتهامس الأطفال الصغار فيما بينهم بانفعال. وفي النهاية وصل المسعفون ليأخذوا الجثة، ودخلت الشرطة إلى شقة العجوز؛ كانت الشقة

مرتبة وخاوية تقريباً إلا من مقعد ومكتب وصورة باهتة — أعلى الحافة البارزة للمدفأة — لسيدة لها حاجبان كثان وابتسامة رقيقة، فتح أحدهم الثلجة ووجد ما يقرب من ألف دولار في عملات صغيرة مغلقة داخل أوراق جرائد قديمة وموضوعة بحرص خلف برطمانات المايونيز والمخلل. أثرت في العزلة التي عبر عنها المشهد، ولوهلة قصيرة تمنيت لو أنني قد عرفت اسم العجوز، ثم ندمت على الفور على هذه الأمنية وما صاحبها من حزن. وشعرت كما لو أن تفاهماً قد نشأ بيننا، كما لو أن العجوز كان يهمس في تلك الشقة الخاوية تاريخاً لم يروه أحد، يخبرني بأشياء لا أحب أن أسمعها. بعد ذلك بشهر أو أكثر على ما أظن، في صباح يوم بارد كئيب من أيام شهر نوفمبر/تشرين الثاني، كانت الشمس باهتة خلف ضباب السحب؛ جاءت المكالمات الهاتفية. كنت أعد الفطور لنفسي والقهوة على الموقد وبيضتين في المقلاة، عندما ناولني رفيقي الهاتف، كان الصوت بعيداً ومشوشاً:

«باري؟ باري، أهذا أنت؟»

«نعم ... من المتحدث؟»

«نعم يا باري ... أنا عمك جين من نيروبي، هل تسمعني؟»

«عفوًا، قلت من؟»

«عمك جين، استمع إلي يا باري، لقد توفي أبوك، مات في حادث

سيارة، باري؟ هل تسمعني؟ أقول إن أباك قد توفي. باري من

فضلك اتصل بعمك في بوسطن وأخبره. لا يمكنني التحدث الآن.

سأحاول الاتصال بك مرة أخرى يا باري ...»

كان هذا هو كل ما جاء في المحادثة، وانقطع الخط فجلست على الأريكة وانتشرت رائحة البيض وهو يحترق في المطبخ، أخذت أحملق في شقوق طلاء الحائط أحاول أن أقدر حجم خسارتي.

لم يكن أبي عندما توفي إنساناً عادياً من وجهة نظري، بل كان أسطورة. ترك أبي هاواي عام ١٩٦٣م حينها لم أكن قد تجاوزت الثانية من عمري،

لذا فلم أعرف أبي حين كنت طفلاً إلا من حكايات أمي وجدّي، وكان لكل منهم حكاياته المفضلة، وكل منها مترابط وسلس من كثرة التكرار، ولا يزال بإمكانني تخيل صورة جدي وهو ينحني إلى الوراء في مقعده الوثير بعد العشاء ويرتشف الويسكي وينظف أسنانه بورق سيلوفان من علبة سجائره ويحكي لي كيف كاد أبي أن يرمي برجل من على جرف «بالي لوك أوت» بسبب غليون:

«قرر والداك أن يصطحبا صديق أبيك في جولة سياحية حول الجزيرة، ذهبا بالسيارة إلى جرف لوك أوت، وكان باراك على الأرجح يسير على الجانب الخاطئ طوال الطريق إلى هناك.»

عقبت أمي قائلة: «كان والدك سائقاً سيئاً، وكان ينتهي به الحال إلى الجانب الأيسر من الطريق بالطريقة التي يقود بها البريطانيون، وإذا قلت له شيئاً، تجده يُبدي سخطه على القواعد الأمريكية السخيفة ...»

«حسناً، في تلك المرة نجحوا في الوصول سالمين، وخرجوا من السيارة ووقفوا على الحاجز المعدني المقام على الجرف ليتأملوا المشهد. كان باراك يدخل من الغليون الذي أعطيته إياه في عيد ميلاده، ويشير بمقدمته إلى جميع المشاهد مثل قبطان بحري ...»

وهنا تقاطع أمي مرة أخرى: «لقد كان أبوك فخوراً حقاً بذلك الغليون، فكان يدخل منه طوال الليل وهو يذاكر، وفي بعض الأحيان ...»
«حسناً يا آن، هل تودين أن تحكي أنت القصة أم ستدعيني أكملها؟»
«آسفة يا أبي، تفضل.»

«على أية حال، كان ذلك الفتى المسكين طالباً أفريقياً أيضاً، أليس كذلك؟ كان قد وصل لتوه لأمريكا، ولا بد أن ذلك الفتى المسكين قد أعجب بالطريقة التي يتحدث بها باراك وهو يشير بالغليون إذ طلب أن يجربه، ففكر والدك في الأمر لدقيقة ثم وافق في النهاية، وما إن بدأ الفتى في التدخين منه حتى داهمته نوبة سعال، وأخذ يسعل بقوة حتى إن الغليون انزلق من يده وسقط من فوق الحاجز، من ارتفاع مئة قدم [٣٠,٤٨ متر] ليستقر أسفل الجرف.»

ثم يتوقف جدي ليرتشف من زجاجته قبل أن يستأنف: «حسنًا، كان أبوك لطيفًا بما يكفي لأن ينتظر حتى ينتهي صديقه من السعال ثم أمره أن يقفز من فوق الحاجز ويعيد له الغليون، فنظر الرجل أسفل الجرف الذي يهبط بزاوية قائمة وقال لبارك إنه سيشترى له واحدًا آخر عوضًا عنه ...» قالت جدتي من المطبخ: «أمر معقول جدًّا.» (كنا نطلق على جدتي توتو، أو اختصارًا توت وتعني «الجدة» بلغة هاواي لأنها رأت في اليوم الذي ولدت فيه أنها لا تزال صغيرة للغاية كي يخاطبها أحد بلقب جدتي.) فيعتقد جدي ما بين حاجبيه ويقرر أن يتجاهلها:

«لكن براك كان مصرًّا على استعادة غليونه، لأنه كان هدية ولا شيء يعوضه عنه، فألقى الفتى نظرة أخرى وهز رأسه مرة أخرى، وهنا رفعه والدك من على الأرض وبدأ يؤرجحه على الحاجز!»

ويطلق جدي صيحة ويضرب على ركبته بمرح ويضحك وفي هذه اللحظة أتخيل نفسي أنظر إلى والدي أسمر البشرة واقفًا قبالة الشمس الساطعة، وذراعا صديقه المذنب تلوحان في الهواء وأبي يحمله عاليًا؛ يا لها من رؤية مخيفة لتحقيق العدالة.

فتقول أُمِّي وهي تنظر إليّ بقلق: «إنه لم يكن يحمله فوق الحاجز بالضبط يا أُمِّي.» ولكن جدي يأخذ رشفة أخرى من الويسكي ويستمر في الحديث:

«عندئذ، بدأ الناس يحدقون فيما يحدث، وأُمك تناشد براك أن يتوقف، وأظن أن صديقه كان يحبس أنفاسه ويتلو صلواته. وعلى أية حال، بعد بضع دقائق ترك والدك الرجل يهبط على قدميه مرة أخرى، وربت على ظهره واقترح بهدوء أن يذهبوا جميعًا ويحتسوا الجعة. وما لا يخطر لك على بال أن أباك استمر في التصرف بهذه الطريقة لما تبقى من الرحلة، وكأن شيئًا لم يحدث، وبالطبع كانت والدتك عندما عادا إلى المنزل ما زالت غاضبة إلى حد بعيد، في الحقيقة كانت تتحدث إلى والدك بالكاد، ولم يكن والدك يساعد على تحسين الأمور، فعندما حاولت والدتك أن تخبرنا بما حدث، هز رأسه وبدأ يضحك، وقال لها: «اهدئي يا آنا»، كان صوت والدك

عميقًا جهوريًا ويتحدث باللكنة البريطانية، وهنا يثني جدي ذقنه إلى عنقه ليحقق التأثير الكامل، ويستكمل: «اهدئي يا آنا»، ما أردت إلا تعليم ذلك الشاب درسًا عن العناية اللائقة بممتلكات الآخرين!

كان جدي يبدأ في الضحك مرة أخرى حتى يأتيه السعال، وتغمغم جدتي بصوت خافت إنها رأت أنه من الأفضل أن والدي قد أدرك أن إسقاط الغليون كان مجرد حادث عارض لأنه من يدري ماذا كان سيحدث غير ذلك، وكانت والدتي توجه نظرها إليّ وتقول إنهما يبالغان. كانت أُمي تعترف وعلى شففتيها يرتسم شبح ابتسامة: «قد تكون شخصية والدك مسيطرة إلى حد ما، لكن هذا في الواقع لأنه شخص صادق للغاية، مما يجعله عنيدًا في بعض الأحيان.»

كانت أُمي تفضل أن ترسم صورة أكثر رقة لوالدي، فتحكي لي أنه حضر لتسلم مفتاح الجمعية الفخرية «في بيتا كابا» مرتديًا ثيابه المفضلة؛ بنطلون جينز وقميص قماشي قديم عليه صورة نمر، وتقول: «لم يخبره أحد أن الأمر شرف كبير، لذا فقد دخل ووجد الجميع يقفون في تلك الغرفة الأنيقة يرتدون سترات رسمية، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي رأيته يشعر فيها بالحرج.»

وكان جدي، بعد أن يستغرق فجأة في التفكير العميق، يبدأ يومي لنفسه ويقول: «إنها حقيقة يا باري، لقد كان بإمكان والدك أن يتعامل مع أي موقف فجعل هذا الجميع يحبونه. أتذكر أنه كان عليه أن يغني في مهرجان الموسيقى الدولي، لقد وافق على غناء بعض الأغاني الأفريقية، لكن عندما وصل اتضح أن الأمر ليس هينًا، كانت السيدة التي قدمت العرض السابق له مطربة شبه محترفة؛ فتاة من هاواي لديها فرقة موسيقية كاملة تدعمها. كان يمكن لأي شخص عندئذ أن يتوقف، ويتعلل بأن خطأ ما قد حدث إلا باراك فلم تكن تلك طبيعته؛ فقد نهض وبدأ يغني أمام ذلك الجمع الكبير، وأنا أقول لك إن هذا ليس بالأمر الهين، وهو لم يكن رائعًا، لكنه كان واثقًا من نفسه فحصل على الفور على نفس التصفيق الذي حصل عليه الآخرون.»

وكان جدي يهز رأسه وينهض من على مقعده ويقلب قنوات التلفيزيون ويقول لي: «هناك شيء يمكنك أن تتعلمه من والدك؛ الثقة إنها سر نجاح الإنسان».

كانت جميع القصص تسير على هذه الوتيرة؛ موجزة ومشكوكًا في صحتها وتُروى في تتابع سريع على مدار أمسية واحدة، ثم تطويها ذاكرة عائلتي لشهور، وفي بعض الأحيان لسنوات، بالضبط مثل الصور القليلة لوالدي التي ظلت في المنزل، وهي صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود كنت أعثر عليها عرضًا وأنا أبحث في الخزانات عن زينة رأس السنة أو جهاز قديم للتنفس تحت سطح الماء. وفي الوقت الذي بدأت فيه ذكرياتي، كانت أُمي قد بدأت بالفعل علاقتها العاطفية بالرجل الذي سيصبح زوجها الثاني، وشعرت دون تفسير لماذا تعين أن توضع الصور بعيدًا. ولكن بين الحين والآخر، كنت أهدق — وأنا أجلس مع أُمي على الأرض، ورائحة الغبار والنفتلين تنبعث من الألبوم الممزق — في صورة أبي؛ الوجه الأسمر المبتسم، الجبهة البارزة والنظارة السمكية التي تجعله يبدو أكبر سنًا من عمره الحقيقي، وأستمع وأحداث حياته تتدفق في قصة يرويها طرف واحد.

علمت أن أبي كان أفريقيًا، كينيًا من قبيلة «لوو» ولد على شواطئ بحيرة فيكتوريا في قرية يطلق عليها «أليجو». كانت القرية فقيرة، لكن والده — جدي الآخر حسين أونيانجو أوباما — كان مزارعًا بارزًا وأحد كبار القبيلة، وكان طبيبًا يمتلك قوى شفائية. ترعرع أبي يرعى ماعز والده ويدرس في المدرسة المحلية التي أنشأتها حكومة بريطانيا الاستعمارية وقد أظهر تفوقًا كبيرًا في دراسته، بعد ذلك فاز بمنحة دراسية بجامعة نيروبي، ثم في عشية استقلال كينيا اختاره القادة الكينيون والرعاة الأمريكيون للدراسة بجامعة في الولايات المتحدة لينضم إلى أول موجة كبيرة من الأفارقة تُبعث لتتقن تكنولوجيا الغرب وتعود بها تبني أفريقيا عصرية جديدة.

عام ١٩٥٩م وصل أبي إلى جامعة هاواي وهو في الثالثة والعشرين من عمره، ليكون أول طالب أفريقي في تلك الجامعة، ودرس الاقتصاد القياسي

واجتهد في دراسته بتركيز ليس له نظير، وتخرج بعد ثلاث سنوات أول دفعته. كان له عدد ضخم من الأصدقاء، وساعد في تنظيم الاتحاد الدولي للطلاب وكان أول رئيس له. وفي دورة لدراسة اللغة الروسية، قابل فتاة أمريكية خجولة مرتبكة لم تكن إلا في الثامنة عشرة من عمرها فجمعهما الحب، وأسر والدا الفتاة — اللذين كانا متحفظين في البداية — بجاذبية الرجل وعقليته، وتزوج الشابان وأنجبا طفلاً أورثه والده اسمه، ثم فاز الأب بمنحة دراسية أخرى، هذه المرة ليحصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد، لكنه لم يحصل على النقود التي تجعله يصطحب أسرته الجديدة معه، وحدث الانفصال، وعاد هو إلى أفريقيا ليفي بوعده للقارة، وظلت الأم والطفل في أمريكا، لكن بعد المسافة لم يؤثر على رباط الحب.

وهنا تنتهي صور الألبوم، وأبتعد أنا راضياً متدثراً بالقصة التي وضعتني في منتصف عالم شاسع ومرتب، وحتى في الرواية الموجزة التي قصتها عليّ والدتي وجدائي، كانت هناك الكثير من الأشياء التي لم أفهمها، لكنني نادراً ما سألت عن التفاصيل التي من الممكن أن تحدد معنى كلمة «دكتوراه» أو «استعمار» أو أن أحدد موقع أليجو على الخريطة. بدلاً من ذلك، احتل مسار حياة أبي المكان نفسه الذي احتله كتاب اشترته لي أمي ذات مرة، كتاب يسمى Origins، الجذور، وهو مجموعة من قصص الخلق من جميع أنحاء العالم، قصص لسفر التكوين والشجرة التي ولد عندها الإنسان، وبروميثيوس وهبة النار، والأسطورة الهندوسية للسحفاة التي تطفو في الفضاء وتحمل ثقل العالم على ظهرها. وفي وقت لاحق، عندما أصبحت أكثر اعتياداً على طريق السعادة الضيق الذي يوجد في التلفزيون والسينما، أصبحت الأسئلة تعصف بذهني؛ ما الذي يحمل السحفاة؟ لماذا يترك إله قدير ثعباناً يسبب كل هذا الحزن؟ لماذا لم يعد أبي؟ لكن في سن الخامسة أو السادسة، رضيت أن أترك هذه الألغاز البعيدة دون المساس بها، كل قصة قائمة بذاتها وحقيقية كالتي تليها، تنجرف إلى أحلام هادئة. وحقيقة أن أبي لم يكن يبدو مثل أي شخص ممن حولي، أنه أسود كالفتح وأمي بيضاء كاللبن، لم تعلق بذهني.

في الحقيقة لا أتذكر سوى قصة واحدة تتناول بصراحة موضوع العرق، وعندما كبرت كانت تتكرر كثيراً، كما لو أنها تعبر عن جوهر القصة الأخلاقية التي أصبحت حياة أبي تمثلها. ووفقاً للقصة، انضم أبي، بعد ساعات طويلة من المذاكرة، إلى جدي وعدد من الأصدقاء الآخرين في حانة في واكيكي. كان الجميع في مزاج مرح يأكلون ويشربون على صوت الجيتار الذي تشتهر به هاواي عندما أعلن رجل أبيض فجأة لساقي الحانة بصوت عالٍ أسمع الجميع إنه لم يكن من المفترض أن يحتسي الخمر الجيد «بجوار زنجي». غرقت الحانة في الصمت واستدار الجميع إلى أبي متوقعين أن يَشَبَّ شجار، لكن أبي نهض، وسار إلى الرجل وابتسم وبدأ يلقنه درساً عن حماقة التعصب الأعمى ووعد الحلم الأمريكي والحقوق العالمية للإنسان. وكان جدي يقول: «تملك الرجل شعور بالأسف الشديد عندما انتهى باريك من حديثه حتى إنه وضع يده في جيبه وأخرج مائة دولار أعطاها لباراك في الحال، ودفع مقابل جميع المشروبات والمقبلات التي تناولناها لباقي السهرة، بل إيجار سكن والدك لباقي الشهر.»

عندما بلغت سن المراهقة أصبحت أشك في صدق هذه القصة وطرحتها جانباً مع باقي القصص، حتى تلقيت مكالمات هاتفية بعد مرور سنوات كثيرة من رجل أمريكي من أصل ياباني قال إنه كان زميل والدي في هاواي وأنه يدرّس حينذاك في إحدى جامعات الغرب الأوسط، كان الرجل لطيفاً للغاية، ويشعر بشيء من الحرج من اندفاعه، وأوضح لي أنه رأى حواراً معي منشوراً في الصحيفة المحلية، وأن رؤية اسم والدي جعلت موجة من الذكريات تتدفق إلى ذهنه. ثم في أثناء الحوار الذي دار بيننا أعاد علي أسماعي القصة نفسها التي أخبرني إياها جدي عن الرجل الأبيض الذي حاول أن يشتري عفو والدي، وقال لي الرجل عبر الهاتف: «لن أنسى هذا قط»، وسمعت في صوته النبرة نفسها التي سمعتها من جدي قبل سنوات كثيرة، نبرة عدم التصديق والأمل.

«اختلاط الأجناس»؛ مصطلح يبدو قميئاً مشوهاً ينذر بنتيجة بشعة، بالضبط مثل عبارة «ما قبل الحرب الأهلية الأمريكية» أو وصف شخص بأن «ثمن

أسلافه من الزنوج»، إنها تستدعي صورًا من عصر آخر، عالم بعيد من السياط والنيران، ونباتات المغنولية الميتة وأروقة المعابد المتداعية. ومع ذلك فلم تنجح المحكمة العليا بالولايات المتحدة في إقناع ولاية فيرجينيا أن منعها للزواج بين الأجناس المختلفة خرق للدستور إلا عام ١٩٦٧م، وهو العام الذي احتفلت فيه بعيد ميلادي السادس، والعام الذي عزف فيه جيمي هندريكس في مونتييري وغنى، وبعد ثلاث سنوات من حصول الدكتور كينج على جائزة نوبل للسلام، وهو وقت كانت أمريكا قد بدأت فيه بالفعل تسأم مطالبة السود بالمساواة، وانتهت على ما يفترض مشكلة التمييز العنصري. أما عام ١٩٦٠م، العام الذي تزوج فيه والداي، فكان اختلاط الأجناس لا يزال يوصف بأنه جريمة عظمى في أكثر من نصف ولايات الاتحاد، وفي أجزاء عديدة من الجنوب كان من الممكن أن يُعْلَقَ أبي على شجرة لمجرد أنه ينظر إلى أمي نظرة غير لائقة؛ وفي أكثر مدن الشمال تحضرًا كان من الممكن أن تدفع النظرات العدائية والهمسات أية امرأة في مأزق والدتي أن تقوم بعملية إجهاض غير شرعية، أو على الأقل أن تلجأ لدير بعيد يمكن أن يرتب لعملية التبني، وكان من الممكن اعتبار مجرد صورتها معًا مسألة فظيعة وشاذة؛ بمنزلة رد فعل على القلة من المتحررين الأغبياء الذين يديمون أجندة الحقوق المدنية.

لكن السؤال: هل كنت ستدع ابنتك تتزوج واحدًا منهم؟

وردّ جدي وجدتي ردًا بالإيجاب على هذا السؤال، بصرف النظر إلى أي مدى كان ذلك على مريض يظل لغزًا ملحًا عليّ؛ فلم يكن هناك أي شيء في ماضيهما ينبئ بمثل هذه الإجابة، فلا يوجد مؤمنون بفلسفة نيو إنجلاند عن التسامي أو اشتراكيين متطرفين في شجرة عائلتيهما. صحيح أن كانساس حاربت إلى جانب الاتحاد في الحرب الأهلية، وكان جدي يحب أن يذكرني أن فروغًا مختلفة من شجرة العائلة كانت تضم مناهضين متحمسين للعبودية، وإذا سألت جدتي فإنها ستدير رأسها إلى الجانب لتستعرض أنفها الأعقف الذي يدل — بالإضافة إلى عينيها شديدي السواد — على أنها من نسل قبيلة شيروكي؛ من السكان الأصليين للولايات المتحدة.

لكن صورة قديمة بنية اللون على رف الكتب كانت تعبر بوضوح عن جذورهما، يظهر فيها جدًا جدتي، وهما من أصل اسكتلندي وإنجليزي، واقفين متجهمين أمام منزل متداع، يرتديان ملابس من صوف خشن، وعيونهما شبه مغمضة تنظر إلى الحياة الصعبة القاسية التي تمتد أمامهما. وكان لهما وجهان كاللذين يظهران في اللوحة التي رسمها جرانت وود التي حملت اسم القوطي الأمريكي American Gothic وهم الأقارب الفقراء من نسل البروتستانت الأنجلو ساكسونيين البيض (واسب)، وفي عيونهما يرى المرء الحقائق التي سأعلم فيما بعد أنها وقائع؛ أن كانساس لم تنضم إلى الاتحاد حرة إلا بعد الأحداث العنيفة التي سبقت نشوب الحرب الأهلية في المعركة التي تذوق فيها سيف جون براون طعم الدماء لأول مرة، وأنه في حين كان أحد أجدادي الأوائل، وهو كريستوفر كولومبس كلارك، جنديًا في جيش الاتحاد وحاصلًا على أوسمة، كانت الشائعات تطارد أم زوجته أنها تَمُتُ بصلة قرابة من الدرجة الثانية لجيفرسون دافيس، رئيس الولايات الكونفدرالية التي انشقت عن الاتحاد، وأنه مع أن أحد أجدادها الأوائل كان من قبيلة شيروكي فقد كان ذلك النسل مصدرًا للخزي الشديد لوالدة جدتي، وكلما ذكر أحدهم هذا الأمر شحب وجهها، وتمنت أن تحمل هذا السر معها إلى قبرها.

هذا هو العالم الذي نشأ فيه جداي، وسط الدولة بالضبط المحاط بالأرض من جميع الاتجاهات، وهو مكان ترتبط فيه اللياقة وقوة التحمل وروح الريادة ارتباطًا وثيقًا بالامتثال لقواعد المجتمع، والشك واحتمال التعرض للقسوة التي لا يطرّف لها جفن. لقد نشأ أحدهما على بعد أقل من عشرين ميلًا من الآخر؛ فجديتي نشأت في أوجوستا وجدي نشأ في الدورادو وهما بلدتان أصغر من أن تظهرًا بحروف بارزة على خريطة للطريق، ورسمت مرحلة الطفولة — التي كان يحبان أن يقصاها كي أستفيد منها — بلدة صغيرة، ورسمت أمريكا أثناء عصر الكساد بجميع مظاهر مجدها البريء؛ الاستعراض العسكري في الرابع من يوليو/تموز وعروض الأفلام التي كانت

تقام على جوانب الحظائر، واليراعات الموضوعة في برطمان، والمذاق الحلو كالتفاح للطماطم الناضجة، والعواصف الترابية والثلجية، والفصول المكتظة بأطفال المزارع الذين لا يبدلون أبداً ملابسهم الداخلية الصوفية التي تلتصق بأجسادهم منذ بداية الشتاء، وتنبعث منهم رائحة كريهة مثل الخنازير مع مرور الشهور.

حتى أزمة انهيار المصارف ونزع ملكية المزارع بدت أمراً رومانسياً بعد أن غزله ذاكرة جديّ، وعندئذ كان الجميع يشترك في الشدائد التي تعد وسيلة عظيمة للمساواة بين الناس والتقريب بينهم؛ لذا كان على المرء أن يستمع بحرص ليدرك الترتيب الهرمي الدقيق والقوانين غير المعلنة التي كانت تحكم حياتهم في بدايتها، والتميز بين الأشخاص الذين لا يملكون الكثير ويعيشون في مناطق نائية. لقد كان الأمر يتعلق بشيء يطلق عليه الاحترام، فقد كان هناك أناس محترمون وآخرون لا يحظون بقدر كبير من الاحترام، ومع أن المرء لا يجب أن يكون ثرياً لينعم باحترام الناس، ففي الواقع عليه أن يبذل كثيراً من الجهد لينال هذا الاحترام إن لم يكن ثرياً. كانت عائلة جدي محترمة، فكان والدها يعمل بوظيفة ثابتة طوال فترة الكساد، فيدير عقود تأجير الأراضي التي سيُنقَب فيها عن البترول لشركة ستاندرد أويل، وكانت والدتها قبل أن تنجب تُدرّس في مدارس إعداد المعلمين. كانت الأسرة تحافظ على منزلها نظيفاً، وتطلب كتباً من التي ترد في قائمة Great Books عبر البريد، وتقرأ الكتاب المقدس ولكنها بصفة عامة كانت تتجنب الذهاب إلى الخيام التي تعقد بها اجتماعات النهضة المسيحية، وتفضل شكلاً قويمًا من تعاليم الكنيسة الميثودية التي تقدر العقل على العاطفة والاعتدال على كليهما.

أما وضع جدي فقد كان أصعب، ولم يعرف أحد لماذا؛ فلم يكن جداه اللذان ربياه هو وشقيقه الأكبر ثريين، لكنهما كانا مهذبين ومعمدانيين يخافان الله، وينفقان على العائلة من أجرهما كعاملين في منصات النفط بالقرب من مدينة ويتشيتا. ومع ذلك فقد تحول جدي بطريقة ما إلى شخص طائش إلى حد ما، وأرجع بعض الجيران سبب ذلك إلى انتحار والدته، فقد

كان ستانلي — الذي لم يتجاوز الثامنة — هو الذي وجد جثتها، وكان آخرون أقل رفقا به يهزون رءوسهم ويقولون إن الولد يحذو حذو والده زير النساء، ويرون أن هذا هو السبب الأكيد لمصير والدته التعس.

ومهما كان السبب، فعلى ما يبدو كان جدي يستحق السمعة التي عرف بها، ففي سن الخامسة عشرة، طُرد من المدرسة الثانوية لأنه لكم الناظر في أنفه، وفي السنوات الثلاث التالية كان ينفق على نفسه من أعمال مختلفة؛ ينتقل بين عربات القطارات المتجهة إلى شيكاغو ثم كاليفورنيا ثم يعود أدراجه مرة أخرى، وأثناء هذا التنقل ينخرط في الهراء ولعب الورق وإقامة علاقات مع النساء. وكما كان يحب أن يقول، فإنه كان يعرف طريقه جيدا في ويتشيتا حيث انتقلت عائلته وعائلة جدي في ذلك الوقت، وهي من جانبها لا تناقض ما يقوله، وبالطبع صدق والدا جدي القصص التي سمعها عن الشاب واستنكرا علاقته بها من البداية، وأول مرة أحضرت فيها جدي جدي إلى منزلها ليقابل أسرتها ألقى والدها نظرة واحدة على شعر جدي الأسود الأملس الممشط إلى الخلف، ثم ابتسم ابتسامة الرجل الحكيم التي يرسمها دائما على شفثيه وعبر عن تقييمه الصريح قائلاً:

«إنه يشبه المتبخرين من الإيطاليين.»

ولكن جدي لم تأبه؛ فهي كمتخصصة في التدبير المنزلي حديثة التخرج من المدرسة الثانوية سئمت الامتثال لقواعد المجتمع، ولا بد أن جدي كان أنيقاً وجذاباً لها. في بعض الأحيان أتخيلهما في كل مدينة أمريكية في تلك السنوات التي سبقت الحرب، وهو يرتدي سروالاً فضفاضاً وفانلة بيضاء وقبعة عريضة الحواف يرجعها إلى الخلف على رأسه، وهو يقدم سيجارة إلى هذه الفتاة عذبة الحديث التي تفرط في طلاء شفثيهما باللون الأحمر وتصبغ شعرها ليصبح أشقر ولها ساقان جميلتان تصلح لاستعراض جوارب المتجر المحلي؛ أتخيله وهو يحدثها عن المدن الكبيرة، والطريق السريع الذي لا ينتهي، وهروبه الوشيك من السهول الخاوية التي يغطيها الغبار، حيث تعني الخطط الكبيرة العمل مديراً لبنك، وتعني التسلية آيس كريم بالصودا وحضور حفل في نهار يوم الأحد، وحيث يخنق الخوف وضيق الخيال أحلام

المرء حتى إنه يعرف بالفعل في اليوم الذي يولد فيه أين بالضبط سيموت ومن سيدفنه، ويصر جدي على أنه لن ينتهي به الحال هكذا، فلديه أحلامه، ولديه خططه، وسينقل لجديتي عدوى التنقل التي جعلت أجدادهما يعبرون المحيط الأطلسي ونصف قارة قبل سنوات كثيرة.

وهربا سرًا ليتزوجا في وقت قصف بيرل هاربور بالضبط، وتجدد جدي في الجيش، وعندئذ تسير أحداث القصة في ذهني بسرعة شديدة مثل مشهد نزع أوراق نتيجة حائط بوتيرة أسرع فأسرع في أحد تلك الأفلام القديمة بيد خفية، فتدور بسرعة في مخيلتي عناوين أخبار عن هتلر وتشرشل وروزفلت ونورماندي، إلى أن تصل العناوين لدوي القصف بالقنابل وصوت إدوارد آر. مورو وإذاعة بي بي سي، وأشاهد أُمي وهي تولد في قاعدة الجيش حيث كان يتمركز جدي، وكانت جدتي إحدى النساء اللاتي عملن في المصانع الحربية أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانت تعمل في خط تجميع قاذفة قنابل، وجدي يخوض في الوحل في فرنسا ضمن قوات الجنرال باتون.

وعاد جدي من الحرب دون أن يرى حربًا حقيقية قط، واتجهت الأسرة إلى كاليفورنيا حيث التحق جدي بجامعة بيركلي بموجب قانون إعادة تأهيل رجال الجيش العائدين من الحرب. لكن غرفة الدراسة لم تتسع لطموحاته ونفاد صبره، ومن ثم انتقلت الأسرة مرة أخرى عائدة في البداية إلى كانساس، ثم عبر سلسلة من البلدات الصغيرة في تكساس، وأخيرًا إلى سياتل حيث استقر بهما المقام لفترة طويلة سمحت لوالدتي أن تنهي دراستها في المدرسة الثانوية، وعمل جدي بائعًا للأثاث، واشترى منزلًا ووجدًا شركاء يلعبون معهما لعبة البريدج، وكانا سعيدين لأن والدتي أثبتت تفوقها في المدرسة، مع أنها عندما عُرض عليها الالتحاق المبكر بجامعة شيكاغو منعها جدي من الذهاب مقررًا أنها لا تزال أصغر من أن تعيش بمفردها.

وعندئذ كان من الممكن أن تتوقف القصة؛ منزل وأسرة وحياء محترمة، فيما عدا أن شيئًا واحدًا كان لا يزال يقض مضجع جدي، ويمكنني أن أتخيله وهو يقف على حافة المحيط الهادي، وقد شاب شعره مبكرًا، وأصبح

جسده الطويل النحيل ممتلئاً، ينظر إلى الأفق يراه وهو ينحني، ولا يزال يشم رائحة منصات النفط وقشر الذرة والحياة الصعبة التي ظن أنه تركها بعيداً وراءه، ولذلك عندما ذكر أمامه بالصدفة مدير شركة الأثاث التي يعمل بها أن متجرًا جديدًا على وشك أن يُفتتح في هونولولو، وأن فرص ازدهار العمل هناك غير محدودة نظرًا لأنها قريبًا ما ستحقق استقلالها، أسرع إلى البيت في اليوم نفسه وتحدث إلى جدي عن بيع المنزل وحزم حقائبهم مرة أخرى للشروع في آخر جولة في رحلتهم غربًا، في اتجاه غروب الشمس ...

سيكون دائمًا بهذا الشكل، أعني جدي، دائمًا ما يبحث عن هذه البداية الجديدة، دائمًا ما يهرب من الأمور المألوفة. وعندما وصلت الأسرة إلى هاواي كانت شخصيته قد نضجت تمامًا على ما أظن؛ تلك الشهامة والرغبة في إسعاد الآخرين، ذلك المزيج الغريب من الخبرة والمعرفة وضيق الأفق، وسذاجة المشاعر التي من الممكن أن تجعله فجأة غير لبق ومن السهل جرح مشاعره. لقد كانت شخصيته شخصية أمريكية، نموذجًا للرجال من جيله، الرجال الذين اعتنقوا مفهوم الحرية والفردية والطريق المفتوح دون أن يكونوا دائمًا على دراية بثمان ذلك، والذين من الممكن أن تقود حماسهم بالسهولة نفسها إلى جبن المكارثية أو إلى أعمال الحرب العالمية الثانية البطولية، الرجال الذين كانوا خطيرين وواعدين في آن واحد، وكانوا كذلك بسبب براءتهم المتأصلة، وهم الرجال الذين سيصابون بالإحباط في النهاية. ومع ذلك فحتى عام ١٩٦٠م لم يكن جدي قد تعرض للاختبار بعد، فأوقات الإحباط ستأتي بعد ذلك، وحتى عندما تأتي فإنها ستأتي ببطء بدون العنف الذي كان من الممكن أن يغيره للأفضل أو للأسوأ، وفي ذهنه أصبح يعتبر نفسه مفكرًا حرًا مخالفًا لمن حوله، بل بوهيميًا. وكان يكتب الشعر أحيانًا ويستمتع إلى موسيقى الجاز، ويعتبر عددًا من اليهود الذين قابلهم في عمله في الأثاث أقرب أصدقائه، وفي محاولته الوحيدة للدخول إلى الدين المنظم، كان يدرج أسماء الأسرة في الاجتماع المحلي للمتبعين لمذهب وحدة الكون، وكانت تروقه فكرة أن التوحيديين يستخدمون نصوص جميع

الأديان العظيمة (وكان يقول: «كما لو أن لديك خمسة أديان في دين واحد.») كانت جدتي تحاول أن تقنعه بالعدول عن آرائه في الكنيسة (فتقول: «بحق السماء يا ستانلي، ليس من المفترض أن يكون الدين مثل شراء حبوب الإفطار!»)، لكن إذا كانت جدتي أكثر شغًا بطبيعتها، ولم تكن تتفق مع جدي في بعض مفاهيمه الغريبة، فإن الاستقلال العنيد لشخصيتها وإصرارها على التفكير في الأمور بنفسها، جعلهما بصفة عامة متقاربين.

كل هذا جعلهما متحررين إلى حد ما، مع أن أفكارهما لن تتحد أبدًا لتكون ما يشبه أيديولوجية ثابتة، وفي هذا كانا أيضًا أمريكيين، ولذا عندما عادت أُمِّي إلى المنزل ذات يوم وتحديث عن صديق قابلته في جامعة هاواي، وهو طالب أفريقي يدعى باراك، كان أول ما بدر إلى ذهنهما هو دعوته على العشاء. وأظن أنه جال في خاطر جدي أن ذلك الشاب المسكين على الأرجح وحيد وبعيد عن وطنه، وكانت جدتي ستقول لنفسها من الأفضل أن نلقي نظرة عليه، وعندما وصل أبي إلى باب منزلهما، من المحتمل أن جدي قد صُدمَ على الفور بمدى تشابه الأفريقي مع أحد مطربيه المفضلين؛ نات كينج كول، وأستطيع أن أتخيله وهو يسأل أبي هل بإمكانه أن يغني، دون أن يفهم نظرة الارتياح التي ارتسمت على وجه والدتي، وكان جدي على الأرجح مشغولاً للغاية يحكي إحدى دعاياته أو يتجادل مع جدتي حول كيفية طهي شرائح اللحم حتى إنه لم يلحظ أن والدتي مدت يدها وضغطت على اليد القوية الملساء إلى جوار يدها، ولاحظت جدتي ذلك لكنها كانت مهذبة بما يكفي لأن تقدم الحلوى وهي تعض على شفيتها، فقد حذرتها غريزتها من أن تبالغ في رد فعلها. وعندما انتهت الأمسية علق كلاهما على حِدَّة ذكاء الشاب ومدى اعتزازه بنفسه الواضح في الإيماءات المحسوبة وجلسه الأنيقة وهو يضع ساقًا فوق أخرى، وما أجمل اللكنة!

ولكن هل يتركان ابنتهما «تتزوج» واحدًا مثله؟

إننا لا نعرف بعد، فالقصة حتى ذلك الحين لا تقدم تفسيرًا مناسبًا. الحقيقة أنهما — على غرار معظم الأمريكيين البيض في ذلك الوقت — لم يفكرا كثيرًا في السود، فقد سلكت قوانين الفصل العنصري طريقها شمالًا

إلى كانساس قبل أن يُولد جدائي بزمان طويل، لكن هذه التفرقة بدت على الأقل حول ويتشيتا أكثر لطفاً وأقل رسمية، ولم تتضمن ذلك القدر الكبير من العنف الذي سيطر على ولايات أقصى الجنوب؛ فقد أبقت نفس القوانين غير المعلنة التي حكمت الحياة بين البيض التعامل بين الأجناس المختلفة عند أدنى مستوياته، وعندما يظهر السود في ذكريات جدي وجدتي عن كانساس، تكون صوراً قصيرة؛ رجال سود يأتون بالقرب من حقول النفط من حين لآخر يبحثون عن عمل كعمال بالأجرة، أو سيدات سود يأخذن ملابس البيض للتنظيف أو يساعدن في تنظيف منازل البيض، فالسود كانوا موجودين وغير موجودين، مثل سام عازف البيانو أو بولا الخادمة أو أموس وأندي على شبكات الإذاعة؛ حضور صامت غير ملحوظ لا يثير عاطفة ولا خوفاً.

ولم تبدأ الأسئلة حول العرق تظهر في حياة عائلتي حتى انتقلت إلى تكساس بعد الحرب؛ فقد تلقى جدي في أسبوعه الأول من العمل هناك نصيحة من زميله البائع في محل الأثاث عن كيفية التعامل مع الزبائن السود والمكسيكيين: «إذا أراد الملونون أن يلحقوا نظرة على البضائع يجب أن يأتوا بعد ساعات العمل الرسمية، ويتولوا بأنفسهم ترتيبات توصيلها لأماكنهم.» وبعد ذلك تعرفت جدتي في المصرف الذي كانت تعمل فيه على الحارس، وهو رجل أسود طويل محترم من محاربي الحرب العالمية الثانية ولا تتذكر إلا أن اسمه كان السيد ريد، وبينما كانا يتبادلان أطراف الحديث في الرواق في أحد الأيام ثارت ثائرة سكرتيرة في المكتب وهمست بغضب لجدتي بأنها لا ينبغي أن تخاطب أبداً «زنجي بلقب السيد». وبعد ذلك بوقت قصير وجدت جدتي السيد ريد في ركن من المبنى يبكي بصوت منخفض، وعندما سألتها ما الخطب نصب قامته وجفف عينيه ورد بسؤال: «ماذا فعلنا حتى نُعامل بهذا الاحتقار؟!»

لم تكن جدتي تعرف إجابة عن هذا السؤال في ذلك اليوم، لكن السؤال علق في ذهنها، وكانت تناقشه في بعض الأحيان مع جدي حين تأوي أُمي إلى الفراش، وقررا أن تستمر جدتي في مخاطبة السيد ريد بلقب «سيد»،

مع أنها تفهمت، بمزيج من الارتياح والحزن، المسافة التي أصبح الحارس يراعي الحفاظ عليها كلما مر أحدهما بجانب الآخر في الأروقة، وبدأ جدي يرفض دعوات زملائه في العمل للخروج واحتساء الجعة، ويخبرهم أن عليه العودة إلى المنزل كي يسعد زوجته، وأصبحا انطوائيين وقلقين وملأهما خوف مجهول وكأنهما غريبان دائمان في المدينة.

وكانت أُمي هي أكثر المتضررين من ذلك المناخ السيئ الجديد، كانت في ذلك الوقت في الحادية أو الثانية عشرة من عمرها، طفلة وحيدة لم تتعاف من حالة ربو شديدة إلا منذ وقت قليل، وقد جعلها المرض — بالإضافة إلى كثرة التنقل — وحيدة نوعاً ما، كانت مرحة وخفيفة الظل لكنها تميل إلى أن تدفن رأسها في كتاب أو تخرج في نزهات سير فردية، وبدأت جدتي تقلق من أن ذلك الانتقال الأخير زاد من وضوح غرابة سلوكيات ابنتها. وكان لأُمي صداقات قليلة في مدرستها الجديدة، وكانت تتعرض بلا رحمة لمضايقات بسبب اسمها، ستانلي آن (أحد أفكار جدي التي تفتقد إلى الحكمة، إذ كان يريد ابناً)، فكانوا يطلقون عليها ستانلي ستيمر أو الرجل ستان. وكانت جدتي عندما تعود من عملها تجدها عادة وحدها في الحديقة الأمامية تؤرجح ساقها من فوق الشرفة أو تستلقي على الحشائش مستغرقة في عالمها المنعزل.

لكن ذلك الوضع اختلف في أحد الأيام؛ فعندما كانت جدتي عائدة إلى المنزل في أحد الأيام الحارة الهادئة وجدت جمعاً من الأطفال محتشدين خارج السياج المحيط بمنزلهم، وعندما اقتربت جدتي استطاعت تمييز أصوات ضحكات ساخرة، وعلامات الغضب والاشمئزاز ترسم على وجوه الأطفال، وكانوا يغنون بصوت حاد وبإيقاع متناوب:

«مُحِبَّةُ الزنوج!»

«يانكي قذرة!»

«محببة الزنوج!»

تفرق الأطفال عندما رأوا جدتي، لكن ليس قبل أن يقذف ولد حجراً كان في يده فوق السياج، وتتبع عينا جدتي مسار الحجر وهو يهبط

أسفل شجرة، هناك رأّت سبب كل هذه الإثارة؛ كانت والدتي وبصحبتها فتاة سوداء في نفس عمرها تقريباً تستلقيان بجوار بعض على بطنيهما على الأعشاب وجولتاهما مرفوعتان فوق ركبتيهما، وأصابع أقدامهما تخترق تربة الحديقة، ورأساهما تستندان على يديهما أمام أحد كتب والدتي، ومن بعيد بدت الفتاتان ساكنتين تحت ظل أوراق الشجر، ولم تدرك جدتي أن الفتاة السوداء كانت ترتعش وعينا أُمي مليئة بالدموع إلا عندما فتحت البوابة، ظلت الفتاتان بلا حراك، مشلولتين من الخوف، حتى انحنت جدتي في النهاية ووضعت يدها على رأسيهما.

وقالت: «إذا كنتما ستلعبان، فبحق السماء تعالياً إلى الداخل، أنتما الاثنتان.» ثم رفعت والدتي من على الأرض ومدت يدها إلى يد الفتاة الثانية، لكن قبل أن تستطيع التفوه بكلمة أخرى ركضت الفتاة بأقصى سرعتها، وبدت ساقاها الطويلتان كسيقان الكلاب من نوع الوبت السريعة حتى اختفت في الشارع.

استشاط جدي غضباً عندما سمع ما حدث، واستجوب أُمي عما حدث ودوّن الأسماء، وفي اليوم التالي أخذ فترة الصباح إجازة من عمله لزيارة ناظر المدرسة، واتصل شخصياً بأولياء أمور بعض الأطفال الذين أهانوا ابنته ليصب عليهم جام غضبه، وقد حصل على الإجابة نفسها من كل ولي أمر تحدث إليه: «من الأفضل أن تتحدث إلى ابنتك يا سيد دونهام، فبنات البيض لا يلعبن مع الملونين في هذه البلدة.»

من الصعب أن يعرف المرء كيف يقدر أهمية هذه الأحداث، وما الإخلاص الدائم للقضية الذي تكوّن أو انهيار، أو ما إذا كانت هذه الأحداث بارزة فقط في ضوء ما تبعها من أحداث، فكلما تحدث جدي معي عنها أصر أن عدم ارتياح الأسرة مع هذه العنصرية كان من بين الأسباب التي دفعتها لمغادرة تكساس، وكانت جدتي أكثر حرصاً؛ فذات مرة عندما كنا وحدنا أخبرتني أنهم لم ينتقلوا من تكساس إلا لأن الأمور لم تكن تسير على ما يرام مع جدي في العمل، ولأن صديقاً من سياتل وعده بشيء أفضل. ووفقاً

لها فلم يكن حتى مصطلح «العنصرية» في مفرداتهم في ذلك الوقت، فتقول: «كنت أرى أنا وجدك أنه علينا معاملة الناس بأسلوب مهذب يا باري، هذا هو كل ما في الأمر.»

إنها حكيمة بهذه الطريقة، فجدتي — التي تميل للشك في العواطف المفرطة أو الادعاءات المبالغ فيها — تقبل حكم الفطرة السليمة، لذا أميل إلى الثقة بروايتها للأحداث، فإنها تتفق مع ما أعرفه عن جدي من ميله لأن يعيد كتابة تاريخه ليكون متوافقاً مع الصورة التي يتمناها لنفسه. ومع ذلك فلا أستبعد تمامًا ما يقصه عليّ جدي من أحداث وأعتبره عملاً من أعمال الثناء المفرط على الذات، أي صورة أخرى من إعادة كتابة التاريخ بشكل مغاير لدى البيض، لا يمكنني هذا، بالتحديد لأنني أعرف مدى إيمان جدي الشديد بالقصص التي يرويها، ورغبته الشديدة في أن تكون حقيقية، حتى لو لم يعرف دائماً كيف يجعلها كذلك. بعد تكساس لا أظن أن السود أصبحوا جزءاً من القصص التي يرويها، القصص التي كانت تجد طريقها عبر أحلامه، وستصبح حالة العرق الأسود وآلامه وجراحه، تختلط في عقله مع آلامه الخاصة؛ الأب الغائب والإشارة إلى الفضيحة، والأم التي رحلت، وقسوة الأطفال الآخرين، وإدراكه أنه لم يكن صبيّاً أشقر الشعر، وأنه يبدو مثل «إيطالي متبخر»، وأخبرته غريزته أن العنصرية كانت جزءاً من ذلك الماضي، جزءاً من التقاليد والجدارة بنيل الاحترام والمكانة، وجزءاً من تكلف الابتسام والهمسات ونشر الإشاعات التي أبقت في الخارج يحاول أن يسترق النظر إلى الداخل.

أظن أن هذه الغريزة لها أهمية، فقد اتجهت عند كثير من البيض من جيل جدي وجدتي ممن لهم نفس خلفياتهما العائلية إلى الاتجاه المضاد، اتجاه سواد الناس. ومع أن علاقة جدي بوالدتي كانت قد توترت بالفعل في الوقت الذي وصلوا فيه إلى هاواي — فهي لم تتقبل قط عدم استقراره ومزاجه العنيف في معظم الأوقات وكان لا بد أن تغدو خجولة من قسوته وأخلاقه الفظة — فقد كانت تلك الرغبة في طمس الماضي، وتلك الثقة بإمكانية إعادة تشكيل العالم من الخيال هو الميراث الباقي له، وسواء أدرك

جدي هذا أم لم يدركه، فإن رؤية ابنته في صحبة رجل أسود قدمت على مستوى عميق غير مستكشف من ذاته، نافذة تطل على قلبه.

ولكن معرفة الذات هذه — حتى إذا كان قد توصل إليها — لم تكن لتجعل تقبل خطوبة أمي أسهل له، في الحقيقة يظل كيف حدث الزواج ومتى حدث أمرًا غير واضح، وهي التفاصيل التي لم أملك الشجاعة قط لاستكشافها؛ فلا يوجد تسجيل لحفل زواج بالمعنى المعروف، لا كعكة أو خاتم زواج أو إمساك والد العروس بيد ابنته ليسلمها لزوجها، ولم تحضره عائلات، حتى يبدو أن الناس في كانساس في ذلك الوقت لم يكونوا على علم به. مجرد حفل زواج مدني صغير، وقاضٍ لإتمام مراسم الزواج القانونية، الأمر برمته يبدو هشًا عند تأمله، عشوائيًا للغاية ودون أي تنظيم، وربما يكون هذا هو الأسلوب الذي أراد جدائي أن يتم به الأمر، تجربة ستمر، مسألة وقت فحسب، مادام أنهما يحافظان على ثبات موقفهما ولم يقوما بأي سلوك متطرف.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنهما لم يخطئا في تقدير حزم أمي الهادئ فحسب، بل أخطأ أيضًا في تقدير تذبذب مشاعرهما. وعندما وُلد طفل، يزن ثمانية أرطال وأوقيتين [٣,١٢٠ كيلوجرام] وله عشرة أصابع في قدميه ومثلهم في يديه ويريد أن يأكل، ماذا كان يمكن أن يفعلوا؟

بدأ الزمان والمكان يتآمران ويحولان الموقف العصيب إلى شيء يمكن قبله، بل يمكن أن يصبح مصدرًا للفخر، وكان جدي يجلس يشارك أبي احتساء الجعة ويستمتع إلى زوج ابنته الجديد وهو يتحدث بجرأة عن السياسة أو الاقتصاد وعن أماكن بعيدة للغاية مثل الوايتهول أو الكريملين ويتخيل نفسه يستطلع المستقبل، ثم يبدأ يقرأ الصحيفة بحرص أكبر، ويجد أولى التقارير التي تحدثت عن عقيدة الاندماج العنصري الجديدة في أمريكا، ويقرر أن العالم ينكمش، وأن العواطف تتغير، وأن الأسرة من ويتشيتا قد انتقلت في الواقع إلى مقدمة سياسة «الحدود الجديدة» التي تبناها كينيدي، وحلم الدكتور كينج الرائع. كيف يمكن لأمريكا أن ترسل رجالها إلى الفضاء وهي لا تزال تبقي مواطنيها السود في العبودية؟ وكانت

إحدى أوائل الذكريات في حياتي؛ أنا أجلس على كتفي جدي أشاهد رواد الفضاء يصلون من إحدى مهام بعثة أبوللو إلى قاعدة هيكام الجوية بعد هبوط ناجح، وأتذكر أن رواد الفضاء بنظاراتهم التي يضعها الطيارون كانوا على مسافة بعيدة للغاية، ولا أكاد أراهم عبر مدخل غرفة العزل، ولكن جدي كان يقسم دائماً أن أحد رواد الفضاء قد لوح لي وأنا لوحته له، كان هذا جزءاً من القصة التي يرويها لنفسه، لقد دخل جدي مع زوج ابنته الأسود وحفيده أسمر البشرة إلى عصر الفضاء.

وأي ميناء يكون أفضل من هاواي، أحدث عضو في الاتحاد، لبدء هذه المغامرة الجديدة؟ حتى في الوقت الحاضر — بعد أن تضاعف تعداد سكان الولاية أربعة أضعاف، وبعد أن أصبحت واياكيكي تكتظ بمطاعم الوجبات السريعة المختلفة والمتاجر التي تباع شرائط الفيديو الإباحية والتقسيم الفرعي الذي يزحف دون رحمة إلى كل جزء من التل الأخضر — حتى في هذا الوقت يمكنني تعقب الخطوات الأولى التي خطوتها وأنا طفل منبهر بجمال الجزر، والسطح الأزرق المرتجف للمحيط الهادي، والمنحدرات التي تغطيها نباتات الأشنة الخضراء، والاندفاع الرائع لشلالات مانوا، وزهور الزنجبيل والظلال العالية المليئة بأصوات طيور غير مرئية، وأمواج الشاطئ الشمالي العنيفة، تتحطم كما لو أنها في بكرة شريط سينمائي في عرض بطيء، وظلال قمم بالي الجبلية، والهواء الرطب ذي الرائحة الطيبة النفاذة. إنها هاواي! ولا بد أنها كانت في نظر عائلتي التي وصلت حديثاً عام ١٩٥٩م كما لو أن الأرض نفسها — بعد أن سئمت تدافع الجيوش والحضارة المريعة — أجبرت هذه السلسلة من الصخور زمردية اللون على البروز حيث يستطيع الرواد من جميع أنحاء العالم أن يملأوا الأرض بأطفالهم الذين ستصبغهم الشمس باللون البرونزي. أما الغزو القبيح لسكان هاواي الأصليين عن طريق المعاهدات الفاشلة، والأمراض العضال التي أحضرتها البعثات التبشيرية، وتجريف التربة البركانية الغنية على يد الشركات الأمريكية من أجل زراعة قصب السكر والأناناس، ونظام التعاقد بين صاحب العمل والأجير الذي جعل المهاجرين من اليابانيين والصينيين

والفلبينيين يكدحون دون توقف من شروق الشمس إلى غروبها في هذه الحقول، واعتقال الأمريكيين من أصل ياباني خلال الحرب؛ كل ذلك كان تاريخاً حديثاً. ومع ذلك ففي الوقت الذي وصلت فيه عائلتي كان ذلك قد اختفى بطريقة ما من الذاكرة الجماعية، مثل ضباب الصباح الذي بددته الشمس. كانت هناك الكثير من الأجناس — والسلطة مشتتة للغاية فيما بينهم — مما جعل من الصعب فرض النظام الطبقي الصارم المطبق في الدولة الأم، وعدد قليل للغاية من السود حتى إن أكثر أنصار الفصل العنصري حماسة يمكنهم الاستمتاع بإجازة بأمان في ظل معرفة أن الاختلاط بين الأجناس في هاواي ليس له علاقة بالنظام القائم في الوطن.

ومن ثم، نُسِجَت خيوط أسطورة تقول إن هاواي بوتقة الانصهار الحقيقية، وتجربة في التجانس العرقي، وقد أقحم جدي وجدتي — ولاسيما جدي الذي كان يتعامل مع أناس كثيرين بحكم عمله في الأثاث — نفسيهما في قضية التفاهم المتبادل. ولا تزال هناك نسخة قديمة من كتاب ديل كارنيجي «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس» على رف مكتبته، وعندما كبرت كنت أسمعه يتحدث بذلك الأسلوب المرح الودود الذي رأى أنه سيساعده في عمله مع زبائنه، فكان من السهل عليه أن يُخرج بسرعة صور العائلة ويروي قصة حياته على أول شخص غريب يقابله، ويصافح ساعي البريد ويشد على يديه، أو يلقي دعابات بذيئة على النادل في المطاعم.

كانت مثل هذه السلوكيات الغربية تجعلني أشعر بالخجل ولكن كان هناك أشخاص أكثر تسامحاً من حفيده يقدرّون صفاته الغربية، حتى إنه كانت له دائرة واسعة من الأصدقاء، مع أنه لم يكن له نفوذ كبير قط. فقد كان بالقرب من منزلنا متجر صغير يديره رجل أمريكي من أصل ياباني يدعو نفسه فريدي يحتفظ لنا بأفضل شرائح التونة من نوع سكيب جاك لصنع طبق الساشيمي، ويعطيني بونبون رايس كاندي المغلف بورق أرز يمكن أكله. وفي أوقات كثيرة كان سكان هاواي الأصليون الذين يعملون في متجر جدي عمالَ توصيل للطلبات يدعوننا لتناول القلقاس مع لحم الخنزير المشوي، الذي كان جدي يلتهمه بنهم (أما جدتي فكانت تدخن السجائر

حتى تعود إلى المنزل وتقلي لنفسها بيضاً). وفي بعض الأحيان كنت أذهب مع جدي إلى منتزه أليئي حيث كان يحب أن يلعب الداما مع فلبينيين كبار في السن يدخلون سجائر رخيصة ويصقون بكميات كبيرة عصارة بذور نبات التببول التي تبدو كما لو أنها دم. ولا أزال أذكر كيف اصطحبنا رجل برتغالي — كان جدي قد باعه أريكة بثمان جيد — في وقت مبكر من صباح أحد الأيام قبل شروق الشمس بساعات لاصطياد سمك بالحربة من خليج كايلاوا. كان هناك مصباح يعمل بالغاز يتدلى من القمرة في قارب الصيد الصغير وأنا أشاهد الرجلين وهما يغوصان في المياه المظلمة السوداء كالفحم، وضوء كشافيهما يتوهج أسفل السطح حتى يظهرهما ومعهما سمكة كبيرة ملونة تضرب بذيلها في طرف أحد الرمحين، وقد أخبرني جدي باسمها في لغة هاواي، وهو هومو-هومو-نوكو-نوكو-أبوا، وأخذنا نرده طوال رحلتنا إلى المنزل.

في مثل هذه البيئة، لم يسبب أصلي العرقي لجدي وجدتي الكثير من المشكلات، وسريعاً ما تبنيما سلوك الازدراء الذي يتبعه السكان المحليون تجاه الزوار الذين يعبرون عن عدم ارتياحهم فيما يخص هذا الشأن. وفي بعض الأحيان عندما يرى جدي السياح يشاهدونني وأنا ألعب على الرمال، فإنه يقترب منهم ويهمس، باحترام لائق، قائلاً إنني حفيد الملك كاميهاميهيا أول ملوك هاواي. وكان يحب أن يقول لي وهو يرسم ابتسامة عريضة على شفتيه: «أنا واثق من أن صورتك توجد في ألف سجل للصور يا باري، من ولاية إيداهو إلى ولاية مين.» أظن هذه القصة بالتحديد غامضة، وأرى فيها استراتيجية لتجنب الموضوعات الصعبة، لكن جدي كان يروي قصة أخرى بالسرور نفسه عن تلك السائحة التي رأتني أصبح يوماً ما، وبدون أن تعرف مع من تتحدث علقت قائلة: «لا بد أن سكان هاواي هؤلاء يولدون ماهرين بالسباحة»، فأجابها جدي إن هذا أمر يصعب اكتشافه إذ إن «هذا الصبي هو حفيدي، وأمه من كانساس ووالده من قلب كينيا، ولا يوجد محيط لمسافة عدة أميال من كلا المكانين.» ففي نظر جدي لم يعد العرق شيئاً يستحق أن يقلق المرء بشأنه، فإذا كان الجهل لا يزال باقياً في أماكن بعينها،

فسيكون من الباعث على الطمأنينة أن تفترض أن باقي العالم سرعان ما سيلحق بركب الحضارة والتقدم.

وفي النهاية أظن أن هذا هو ما كانت تدور حوله جميع القصص عن أبي، فإنهم لم يتحدثوا عن الرجل نفسه بقدر ما تحدثوا عن التغيرات التي حدثت في الأشخاص المحيطين به، والعملية المترددة التي تغير بها موقف جدي وجدتي تجاه العنصرية. لقد أعطت القصص صوتاً لروح ستستحوذ على الأمة طوال الفترة القصيرة بين انتخاب كينيدي وإقرار قانون حق التصويت؛ الذي يعد الانتصار الظاهري لعقيدة الإيمان بخلاص كل الناس على محدودية التفكير وضيق الأفق، إنه عالم جديد مشرق حيث ستكون الاختلافات في العرق والثقافة مصدرًا للتوجيه والتسلية، بل ربما تقود المرء للمجد، إنها قصة خيالية جيدة تطاردني قدر ما كانت تطارد عائلتي، وتستحضر بعض جوانب جنة مفقودة تمتد لأبعد من مجرد حدود الطفولة. ولم تكن هناك سوى مشكلة واحدة؛ أن أبي لم يكن موجودًا. لقد ترك الجنة، ولم يكن شيئاً مما أخبرتني به أمي أو جدي وجدتي بإمكانه أن يلغي هذه الحقيقة الواضحة، وقصصهم لم تخبرني لماذا رحل، ولم يستطيعوا أن يصفوا كيف كانت ستبدو الأمور لو لم يرحل، وعلى غرار الحارس السيد ريد أو الفتاة السوداء التي أثارت الغبار وهي تقطع أحد طرق تكساس مسرعة، أصبح والدي مجرد شخصية في قصة يرويها شخص ما، شخصية جذابة — شخص غريب قلبه من ذهب، الغريب الغامض الذي ينقذ البلدة ويفوز بالفتاة — ولكنه لا يزال شخصية في قصة مع ذلك.

إنني لا ألوم حقاً والدي أو جدي على هذا، فربما كان والدي يفضل الصورة التي رسموها له، بل ربما كان مشتركاً في تصويرها؛ فهو يظهر في مقال نُشر في صحيفة هونولولو ستار-بوليتين عند تخرجه شخصاً متحفظاً ومسئولاً، في صورة الطالب النموذجي سفير قارته، وينتقد الجامعة بلباقة لأنها تحشد الطلاب الزائرين في مبنى خاص ملحق بالجامعة وتجبرهم على حضور برامج دراسية مصممة لتعزيز التفاهم الثقافي، وقال إن هذا يشئت

انتباهه عن التدريب العملي الذي يسعى إليه. ومع أنه لم يتعرض شخصياً لأية مشكلات، فقد لاحظ أن البعض يعزلون أنفسهم عن حولهم وأن هناك تمييزاً عنصرياً واضحاً بين الجماعات العرقية المختلفة، وعبر بمرح ساخر عن حقيقة أن «القوقازيين» في هاواي يتعرضون أحياناً للتحيز، لكن إذا كان تقييمه يعبر عن بصيرة نافذة نسبياً، فقد كان حريصاً على أن ينهي حديثه بملحوظة إيجابية إذ قال إن أحد الأشياء التي يمكن أن تتعلمها الأمم الأخرى من هاواي هي استعداد الأجناس للعمل معاً من أجل تحقيق التنمية المشتركة، وهو سلوك وجد المواطنين البيض في أماكن أخرى غير مستعدين للقيام به في معظم الأحيان.

اكتشفت وجود هذه المقالة مطوية بين شهادة ميلادي واستمارات تطعيم قديمة، عندما كنت في المدرسة الثانوية، كانت قصاصة صغيرة بها صورة له، دون ذكر لأبي أو لي، وتركت أنا لأتساءل عما إذا كان الحذف متعمداً من جانب أبي، استعداداً لرحيله الطويل، وربما لم يطرح الصحفي عليه أسئلة شخصية خوفاً من أسلوب أبي المتعجرف، أو ربما كان الأمر قراراً من مجلس تحرير الصحيفة بصفته ليس جزءاً من القصة البسيطة التي كانوا يبحثون عنها، وأتساءل أيضاً هل سبب ذلك الحذف شجاراً بين أبوي.

في ذلك الوقت ما كنت سأعرف لأنني كنت أصغر سناً من أن أدرك أنه كان من المفترض أن يكون لي أب يعيش معي، بالضبط كما كنت أصغر من أن أعرف أنني بحاجة لأن يكون لي عرق. ولفترة قصيرة للغاية بدا أن أبي قد سقط تحت تأثير التعويذة التي سقطت تحت تأثيرها أمي وجداي، وحتى عندما كُسرت تلك التعويذة، واستعادت العوالم — التي ظنوا أنهم تركوها خلفهم — سيطرتها عليهم، شغلت أنا المكان الذي كانت تحتله أحلامهم في السنوات الست الأولى من حياتي.

الفصل الثاني

كان الطريق إلى السفارة مختنقًا بحركة المرور: السيارات، والدراجات البخارية، وعربات الأجرة الصغيرة التي تسير على ثلاث عجلات (ريكشا)، والحافلات الكبيرة والصغيرة التي تحمل ضعف سعتها من الركاب؛ موكب من العجلات والأذرع والسيقان، كل يحارب ليجد لنفسه مكانًا أثناء قيظ ما بعد الظهرية. استطعنا أن نشق طريقنا بضعة أقدام إلى الأمام، ثم توقفنا، ووجدنا مخرجًا ننفذ منه ثم توقفنا مرة أخرى، ولوح سائق سيارة الأجرة التي نستقلها مبعّدًا مجموعة من الصبية الذين كانوا يبيعون اللبان والسجائر المفردة، وكاد أن يصطدم بدراجة بخارية تحمل عائلة كاملة على ظهرها؛ أب وأم وابن وابنة، مالوا جميعًا معًا كأنهم شخص واحد عند أحد المنعطفات، وكانوا يكممون أفواههم بمناديل للتخفيف من تأثير العوادم عليهم جعلتهم يبدون كعائلة من قطاع الطرق، وعلى جانب الطريق كانت مجموعة من النساء السمراوات ذوات البشرة الذابلة يلففن حول أجسادهن رداءً بنيًا باهت اللون يرتبن في أكداس سلاّلاً من القش ممثلة بفاكهة ناضجة، وميكانيكيان يجلسان أمام جرّاب في الهواء الطلق، ويهشان الذباب بخمول وهمها يفككان محركًا، ومن خلفهما تنحدر بعض أجزاء التربة الطينية لتصبح مقلّبًا للنفايات المحترقة حيث كان طفلان مستدير الرأس يطاردان بجنون دجاجة سوداء هزيلة، وانزلق الطفلان في الوحل وقشر الذرة وأوراق شجر الموز يصرخان في سعادة حتى اختفيا في الطريق القذر خلفهما.

وما إن وصلنا إلى الطريق السريع حتى قل الزحام، خرجنا من سيارة الأجرة أمام السفارة حيث استقبلتنا إيماءات الترحيب من اثنين من رجال مشاة البحرية يرتديان ملابس أنيقة، وداخل فناء السفارة حل صوت الإيقاع المنتظم لتقليم الأشجار محل ضوضاء الشارع. كان رئيس أمني في العمل رجلاً أسود بدينًا قصير الشعر بدأ الشيب يخط صدغيه، ويتدلى علم الولايات المتحدة من على سارية طويلة بجوار مكتبه، وقد مد إلي يده مصافحًا بقوة قائلاً: «كيف حالك أيها الشاب؟» كانت تنبعث منه رائحة عطر ما بعد الحلاقة وياقة القميص المشدودة تحيط عنقه بإحكام. ووقفت منتصب القامة وأنا أجبب أسئلته عن تقدمي في الدراسة، وكان الهواء في غرفة المكتب باردًا وجافًا، مثل هواء قمم الجبال، نسيم نقى عليل.

انتهت مقابلتنا، وأجلستني أمني في المكتبة في حين ذهبت هي لإنجاز بعض الأعمال، انتهيت من قراءة كتب الرسوم المسلية ومن الواجب الدراسي الذي جعلتني أمني أحضره معي قبل أن أصعد فوق مقعدي لأستعرض الكتب على الأرفف. كانت معظم الكتب لا تثير اهتمام صبي في التاسعة من عمره؛ تقارير البنك الدولي، ودراسات جيولوجية، وخطط خمسية للتنمية، لكنني وجدت في أحد الأركان مجموعة من أعداد مجلة «لايف» معروضة بشكل أنيق في غلاف بلاستيكي شفاف، قلبت في الإعلانات الجذابة — شركة جودير للإطارات، وشركة ودودج فيفر، وشركة زينيث لأجهزة التلفزيون («لماذا ليس أفضل الأنواع؟») وحساء كامبل (ممم! شهى) — ورجال يرتدون بلوفرات بيضاء ذات رقبة طويلة يسكبون الخمر على الثلج ونساء يرتدين جونلات حمراء قصيرة يشاهدن بإعجاب، ولسبب غريب بث هذا في نفسي الطمأنينة. وعندما رأيت صورًا إخبارية، حاولت أن أخمن موضوع القصة قبل قراءة التعليق؛ رأيت صورة لأطفال فرنسيين ينطلقون في شوارع مُعبدة بالحصى الكبير، كان مشهدًا سعيدًا يلعبون فيه لعبة الاستغماية بعد يوم من الكتب المدرسية والواجبات اليومية المملة، وكانت ضحكاتهم تعبر عن الحرية، ثم صورة سيدة يابانية تضع برفق فتاة صغيرة عارية في حوض غير عميق، كان ذلك المشهد حزينًا، فالفتاة كانت مريضة وساقها ملتويتان

ورأسها ملقى إلى الخلف على صدر الأم، كان الحزن محفوراً على ملامح وجه الأم، ربما كانت تلقي باللوم على نفسها ...

وفي النهاية صادفت صورة لرجل عجوز يرتدي نظارة سوداء ومعطف مطر يسير في طريق خاوي، لم أستطع تخمين ما الذي تدور حوله هذه الصورة، فلم يبد بها أي شيء غير عادي عن الموضوع، وفي الصفحة التالية وجدت صورة أخرى، هذه المرة صورة أقرب ليدي الرجل نفسه، وكانت شاحبتين شحوباً غير طبيعي، كما لو أن الدماء قد سحبت من الجسد، فعدت إلى الصورة الأولى، وفي تلك اللحظة فقط رأيت أن شعر الرجل المجعد وشفتيه الغليظتين وأنفه العريض الضخم جميعها لها نفس اللون الشاحب المخيف. وجال في خاطري أن الرجل يعاني مرضاً شديداً، أو ربما يكون ضحية التعرض لإشعاع أو ربما يكون أمهق، فقد رأيت أحد هؤلاء الناس في الشارع قبل بضعة أيام، وشرحت لي أُمي هذه الأشياء. لكن عندما قرأت ما صاحب الصورة من تعليق أدركت أنه ليس واحداً من هؤلاء؛ فقد جاء في المقال أن الرجل تلقى علاجاً كيميائياً لتفتيح لون بشرته، وقد دفع نقود العملية من أمواله الخاصة، ثم أبدى بعض الندم على محاولة تغيير نفسه إلى رجل أبيض، وكان يشعر بالأسف للنتيجة السيئة التي آلت إليها الأمور، لكن لا يمكن إعادة بشرته إلى ما كانت عليه. آلاف الأشخاص مثله، رجال ونساء سود في أمريكا كانوا سيودون الخضوع لهذا العلاج استجابة للدعاية التي تعدهم ب حياة سعيدة إذا أصبحوا من البيض.

تدفقت الدماء الساخنة إلى وجهي وعنقي، وبدأت معدتي تتقلص، وبدأت الحروف غير واضحة أمام عيني، هل كانت أُمي تعلم بشأن هذا؟ ماذا عن رئيسها، لماذا كان شديد الهدوء وهو يقرأ التقارير على مقربة منه في الرواق؟ وكانت لديّ رغبة قوية في أن أقفز من على مقعدي لأريهم ما رأيته، وأن أطلب منهم تفسيراً أو طمأنة، لكن شيئاً ما أوقفني، وكما يحدث في الأحلام لم يكن هناك صوت لمخاوفي الجديدة، وعندما عادت أُمي لتصطحبني إلى المنزل كانت الابتسامة تعلو وجهي وعادت المجلات إلى مكانها الصحيح، والغرفة والجو عادا هادئين كما كانا من قبل.

كنا قد قضينا في إندونيسيا في ذلك الوقت ما يزيد عن ثلاثة أعوام نتيجة زواج والدتي من رجل إندونيسي اسمه لولو كان هو الآخر طالبًا قابلته أُمِّي في جامعة هاواي، وكان اسمه يعني بلغة هاواي «مجنون»، الأمر الذي كان يجعل جدي ينفجر ضحكًا بلا توقف، لكن المعنى لم يكن مناسبًا للرجل؛ إذ كان لولو يتمتع بكياسة وأخلاق شعبه، كان قصير القامة أسمر البشرة وسيم الطلعة أسود الشعر كثيفه، له ملامح من الممكن أن تكون ملامح أحد أبناء المكسيك أو ساموا أو إندونيسيا، وكان يجيد لعب التنس، وله ابتسامة هادئة رائعة، وكان رابط الجأش أيضًا. ولدة عامين — منذ أن كنت في الرابعة حتى أصبحت في السادسة — احتمل عددًا لا حصر له من ساعات لعب الشطرنج مع جدي وجولات طويلة من المصارعة معي. وعندما أجلسني أُمِّي في أحد الأيام لتخبرني أن لولو قد عرض عليها الزواج ويريدنا أن ننتقل معه إلى مكان بعيد، لم أتفاجأ ولم أبد أي اعتراض أيضًا، لكنني سألتها هل تحبه، فقد أصبحت على خبرة كافية لأن أدرك أهمية مثل هذه الأشياء، فبدأ ذقن أُمِّي يرتجف مثلما يحدث عندما تقاوم دموعها، وضمنتني بين ذراعيها لوقت طويل جعلني أشعر أنني شجاع، مع أنني لم أكن واثقًا من سبب هذا الشعور.

ترك لولو هاواي فجأة بعد ذلك، وقضيت أنا وأُمِّي شهرًا نجري استعداداتنا؛ جوازات السفر والتأشيرات وتذاكر الطيران وحجز الفنادق وسلسلة لا تنتهي من الصور. وبينما كنا نحزم حقائبنا، أخرج جدي أطلس جغرافية العالم ووضع علامات على أسماء سلسلة جزر إندونيسيا: جاوه وبورنيو وسومطرة وبالي، وقال إنه يتذكر بعض الأسماء من قراءة أعمال جوزيف كونراد وهو صبي. كان يطلق عليها في ذلك الوقت «جزر البهار»، ولهذه الجزر أسماء ساحرة محاطة بالغموض، وقال: «يقول الكتاب إنه لا تزال توجد هناك نمور، وإنسان الغاب»، ونظر إلى الكتاب واتسعت عيناه وقال: «يقول إنه يوجد هناك صائدو رءوس!» في حين اتصلت جدتي بوزارة الخارجية لتعرف هل البلد مستقر، وأيًا كان من تحدثت إليه فقد أخبرها أن الموقف تحت السيطرة، لكنها أصرت على أن نحمل معنا عدة صناديق

الفصل الثاني

مليئة بالأطعمة: مسحوق عصير تانج، وحليب مجفف، وعلب من سمك الساردين، وقالت بحزم: «من يدري ماذا يأكل أولئك الناس!» فتتهدت أُمي، لكن جدتي قذفت بعدة علب من الحلوى كي تكسبني إلى صفها. أخيرًا صعدنا على متن طائرة تابعة لشركة «بان أمريكان» لنبدأ رحلتنا حول العالم، كنت أرتدي قميصًا أبيض اللون طويل الأكمام وربطة عنق مثبتة بدبوس، وقد أمطرتني المضيفات بألعاب ألغاز وكمية إضافية من الفول السوداني، وأجنحة طيار معدنية وضعتها فوق جيب القميص. وفي أثناء التوقف لثلاثة أيام في اليابان سرنا تحت أمتار شديدة البرودة لنرى تمثال بوذا الفضي العظيم في كاماكورا المصنوع من البرونز وتناولنا آيس كريم بالشاي الأخضر في معدية تنتقل عبر البحيرات الجبلية المرتفعة، وفي المساء كانت أُمي تذاكر بطاقات تعليم اللغات الأجنبية المصورة، وما إن هبطنا من الطائرة في جاكارتا — كان مهبط الطائرات شديد الحرارة والشمس متوهجة كأنها فرن — حتى أمسكت بيد أُمي عاقدة العزم على حمايتها من أي شيء قد نجابهه.

كان لولو هناك في استقبالنا، وقد ازداد وزنه بضعة أرطال، وأصبح هناك شارب كث يلوح فوق ابتسامته، وقد احتضن أُمي ورفعني لأعلى في الهواء، وأخبرنا أن نتبع الرجل الصغير النحيل الذي كان يحمل حقائبنا في الطابور الطويل في الجمارك ثم إلى السيارة التي كانت بانتظارنا. ابتسم الرجل بابتهاج وهو يضع الحقائب في حقيبة السيارة، وحاولت أُمي أن تقول له شيئًا، لكن الرجل ضحك وأومأ برأسه. التف الناس حولنا يتحدثون بسرعة بلغة لا أعرفها وتنبعث منهم رائحة غريبة، ولوقت طويل شاهدت لولو يتحدث إلى مجموعة من الجنود الذين يرتدون زيًا موحدًا بني اللون، وكان بحوزتهم مسدسات يضعونها في جرابها، لكنهم بدوا في مزاج مرح، يضحكون على شيء ما قاله لولو، وعندما انضم إلينا لولو أخيرًا، سألته أُمي هل يريد الجنود فحص حقائبنا.

فقال وهو يستقل السيارة ويحتل مقعد السائق: «لا تقلقي ... لقد اهتممت بكل شيء، إنهم أصدقاؤني.»

أخبرنا لولو أنه استعار السيارة، لكنه اشترى دراجة بخارية جديدة يابانية الصنع، وستفي بالغرض في الوقت الراهن. كان قد انتهى من إعداد المنزل الجديد ولم يتبق سوى قليل من اللمسات الأخيرة، وقد سجل اسمي بالفعل في مدرسة قريبة، وكان أقرباؤه يتوقون لمقابلتنا، وبينما كان يتحدث هو وأمي، أخرجت رأسي من النافذة الخلفية وأخذت أحرق فيما نمر به من مناظر طبيعية بنية وخضراء متعاقبة، وقرى تتبعها غابات، ورائحة وقود الديزل واحترق الأخشاب. وكان الرجال والنساء يسرون برشاقة مثل طيور الكركي عبر حقول الأرز، والقبعات القشية العريضة تخفي وجوههم، وكان هناك صبي مبتل وأملس مثل ثعلب الماء يجلس على ظهر جاموسة ماء لها وجه مضحك ويضربها على فخذاها بعصا من الخيزران. أصبحت الشوارع أكثر ازدحاماً إذ ظهرت المحال الصغيرة والأسواق والناس يجرون عربات محملة بحصى وأخشاب، ثم أصبحت المباني أكثر ارتفاعاً مثل المباني الموجودة في هاواي — فندق إندونيسيا الذي يقول عنه لولو إنه حديث للغاية والمركز التجاري الجديد، أبيض ومتألق — ولكن قليلاً منها فقط كان أطول من الأشجار التي كانت ترطب الهواء على الطريق، وعندما مررنا بصف من المنازل الكبيرة عالية الحواجز وبها مخافر للحراسة، قالت أمي شيئاً لم أستطع تمييزه بوضوح عن الحكومة ورجل يسمى سوكارنو.

فصحت أنا من المقعد الخلفي للسيارة: «من هو سوكارنو؟» لكن بدا أن لولو لم يسمعني، وبدلاً من ذلك لمس ذراعي وأوماً برأسه مشيراً إلى الأمام قائلاً: «انظر» وهو يشير إلى الأعلى، وهناك كان يقف منفرج الساقين على جانبي الطريق عملاق ضخم يصل طوله إلى ارتفاع عشرة طوابق على الأقل وله جسد إنسان ووجه قرد.

وقال لولو ونحن ندور حول التمثال: «هذا هو هانومان، الإله القرد»، فاستدرت في مقعدي وتسمرت وأنا أنظر إلى التمثال الوحيد الذي بدا شديد السواد في مقابل الشمس، ومتأهباً للقفز نحو السماء في الوقت الذي تدور فيه حركة المرور الضعيفة حول قدميه، وقال لولو بحزم: «إنه محارب عظيم، يتمتع بقوة مائة رجل، وعندما يحارب الشياطين يهزمهم دائماً.»

كان المنزل في منطقة تحت التطوير في ضواحي المدينة، وكان الطريق يمتد عبر جسر ضيق فوق نهر واسع مياهه بنية اللون، وعندما مررنا رأيت قرويين يستحمون ويغسلون ملابسهم على طول الضفاف المنحدرة للأسفل، ثم انعطف الطريق بعد ذلك من الطريق المعبد إلى الطرق المغطاة بالحصى ثم طريق ترابي عندما انعطف ليمر أمام متاجر صغيرة وبيوت من طابق واحد مطلية بالجير حتى توقفت أخيراً عند ممرات المشاة الضيقة للقرى الصغيرة. كان المنزل نفسه متواضعاً من الجص والطوب الأحمر، لكنه كان مفتوحاً ويدخله الهواء، وبه شجرة مانجو كبيرة في الفناء الأمامي الصغير، وعندما دخلنا من البوابة قال لولو إن لديه مفاجأة لي، وقبل أن يذكرها سمعنا صوت عواء يصم الآذان من أعلى الشجرة، فقفزت أنا وأمي إلى الوراء بهلع ورأينا مخلوقاً كبيراً كثيف الشعر له رأس صغيرة مسطحة وذراعان طويلتان تسببان الرعب يهبط إلى غصن متدلاً.

فصرخت: «سعدان!»

فصححت أُمِّي قائلة: «بل قرد.»

فأخرج لولو حبة فول سوداني من جيبه ووضعها بين أصابع الحيوان، وقال: «اسمه تاتا، وقد أحضرته من غينيا الجديدة إلى هنا من أهلك.» فبدأت أتقدم قليلاً كي أنظر إليه عن قرب، ولكن تاتا هدد بأن يندفع فجأة للأمام، وكانت عيناه السوداوان الدائريتان شرستين ومليئتين بالشك، فقررت أن أظل حيث أنا.

فقال لولو وهو يعطي تاتا حبة أخرى من السوداني: «لا تقلق، إنه مقيد بحبل. تعال، هناك المزيد.»

فنظرت إلى أُمِّي، فابتسمت لي بتردد، وفي الفناء الخلفي وجدنا ما يشبه حديقة حيوان صغيرة: دجاج وبط يركض في كل مكان، وكلب أصفر كبير له نباح مخيف، واثنان من طيور الفردوس، وبيبغاء كوكاتو أبيض اللون، وأخيراً تمساحان صغيران كانا شبه مغمورين في بحيرة محاطة بسياج باتجاه نهاية المنزل. حلق لولو في التمساحين وقال: «لقد كانوا ثلاثة، لكن أكبرها خرج زاحقاً عبر حفرة في السياج، وتسلل إلى حقل أرز ملك شخص

ما وأكل إحدى بطات صاحب الحقل، وكان علينا أن نصطاده على ضوء الكشافات.»

كان الليل قد أوشك أن يرخي ستائره، ولكننا أخذنا نزهة قصيرة على الطريق الطيني إلى القرية، ولوح مجموعة من أطفال الجيران الضاحكين لنا وهم في منازلهم، وجاء بعض كبار السن من الرجال حفاة القدمين لمصافحتنا. وقفنا أمام منطقة عامة، حيث كان أحد رجال لولو يرمي بعض الماعز، وجاء ولد صغير إلى جوار يمسك يعسوبًا يرفرف بجناحيه في طرف خيط. وعندما عدنا إلى المنزل، كان الرجل الذي حمل متاعنا يقف في الفناء الخلفي يطوي أسفل ذراعه دجاجة لونها بني يميل إلى الأحمر ويحمل في يده اليمنى سكينًا طويلًا، وقال شيئًا للولو، الذي أومأ له ثم نادى على أمي وعلي، لكن أمي طلبت من أن أنتظر حيث أنا ونظرت إلى لولو متسائلة:

«ألا ترى أنه لا يزال صغيرًا؟»

فhez لولو كتفيه ونظر إلي وقال: «على الصبي أن يعرف من أين يأتي عشاؤه، ما رأيك يا باري؟» فنظرت إلى أمي ثم استدردت لمواجهة الرجل الذي يحمل الدجاجة، فأومأ لولو مرة أخرى، وشاهدت الرجل وهو يضع الطائر أرضًا، ويثبت برفق أسفل إحدى ركبتيه، ثم أبعد عنقه عن جسده ليصبح فوق البوعة قريبة، ولدقيقة أخذ الطائر يناضل، ويضرب بجناحيه الأرض بقوة، وتطايرت بضع ريشات في الهواء لترقص مع الرياح، ثم سكن تمامًا، فمرر الرجل شفرة السكين على عنق الطائر في حركة واحدة هادئة، واندفعت الدماء في شريط قرمزي طويل. ونهض الرجل وهو يحمل الطائر بعيدًا عن جسده، ثم ألقاه فجأة عاليًا في الهواء، وسقط الطائر بصوت مكتوم على الأرض ثم جاهد ليقف على قدميه، ورأسه يتدلى بشكل غريب على جانبه ورجلاه تدوران بجنون في دوائر غير منتظمة، وشاهدت الدائرة التي يلف فيها الطائر تضيق، وأصبح الدم يسيل ببطء محدثًا صوتًا كالقرقرة، حتى انهار الطائر على الحشائش وقد فارق الحياة.

مسح لولو على رأسي بيديه وأخبرني أنا وأمي أن نذهب ونغتسل قبل العشاء. تناولنا نحن الثلاثة الطعام؛ دجاجًا وأرزًا بهدوء على ضوء مصباح

أصفر خافت، ثم كانت الحلوى فاكهة حمراء قشرها كثير الشعر، رائحة المذاق في منتصفها حتى إنه لم يوقفني عن تناولها إلا آلام المعدة، وبعد ذلك سمعت — وأنا أنام وحيداً أسفل مظلة للحماية من الناموس — صوت صراخ الليل أسفل ضوء القمر، وتذكرت الانتفاضة الأخيرة للحياة التي شاهدها قبل ساعات قليلة، ولم أكد أصدق حظي السعيد.

«أول شيء تتذكره هو كيف تحمي نفسك.»

وقفت في مواجهة لولو في الفناء الخلفي؛ وقبل ذلك بيوم عدت إلى المنزل وعلى جانب رأسي تورم في حجم البيضة، فنظر إليّ لولو وهو يغسل دراجته البخارية وسألني ماذا حدث، فأخبرته عن مشادة وقعت بيني وبين صبي أكبر مني يقطن في آخر الشارع، وأخبرته أن هذا الصبي أخذ كرة قدم صديقي وجرى ونحن في منتصف اللعبة، وعندما طارده التقط حجراً من الأرض. ثم قلت وصوتي يختنق من الحزن هذا ليس عدلاً، لقد غشني. مرر لولو أصابعه في شعري وفحص الجرح بهدوء، ثم قال في النهاية قبل أن يعود إلى عمله: «إنه لا ينزف.»

ظننت بذلك أن الموضوع قد انتهى، ولكن عندما عاد إلى المنزل من العمل في اليوم التالي، كان معه زوجان من قفازات الملاكمة، وكانت لهما رائحة الجلد الجديد، الزوج الأكبر كان أسود اللون وكان الأصغر أحمر، وأربطتهما معقودة، وملقيان على كتفه.

انتهى لولو من عقد الرباط في قفازي وتراجع إلى الخلف ليرى نتيجة عمله، تدلى ذراعي إلى جانبي مثل مصابيح تتدلى في طرف سلك رفيع، فهز رأسه ورفع القفازين ليغطيا وجهي.

قال لولو: «ابق يديك مرفوعة لأعلى.» وأخذ يضبط وضع مرفقي وتراجع ليتخذ وقفة مناسبة وبدأ يتحرك في مكانه وقال: «عليك أن تستمر في التحرك، ولكن اخفض رأسك لأسفل دائماً، لا تمنحهم هدفاً يضربونه، بماذا تشعر؟» أومأت برأسي وأنا أقلده بقدر ما أستطيع، وبعد بضع دقائق، توقف ورفع راحة يده في مواجهة أنفي.

وقال: «حسنًا، دعنا نرى لكمتك.»

هذا شيء أعرف كيف أقوم به؛ فتراجعت خطوة للخلف، وشحذت قواي وسددت أفضل ضربة لدي، وتمايلت يده بالكاد.

فقال لولو: «ليس سيئًا»، وأومأ لنفسه ولم تتغير تعبيرات وجهه: «ليس سيئًا على الإطلاق، لكن انظر أين يديك الآن، ماذا قلت لك؟ ارفعهما لأعلى ...»

رفعت ذراعيّ وسددت ضربات خفيفة لراحة يد لولو وأنا ألقي نظرة عليه على نحو متكرر وأدركت إلى أي مدى أصبح وجهه مألوفًا لي بعد سنتين معًا، مألوفًا بالضبط كالأرض التي كنا نقف عليها. استغرقت أقل من ستة شهور كي أتعلم اللغة الإندونيسية والعادات والأساطير فيها. وتعرضت للإصابة بالجديري المائي والحصبة وتعافيت منهما، وتذوقت لسعة عصي المدرسين المصنوعة من الخيزران، وأصبح أقرب أصدقائي هم أبناء الفلاحين والخدم والموظفين الحكوميين العاملين بوظائف قليلة الأهمية، وكنا نجري في الشوارع مساءً وصباحًا، ونقوم بأعمال غريبة؛ فنمسك بصراصير الليل، ونحارب الطيارات الورقية بأسلاك حادة كالأمواس، وكان الخاسر يرى طائرته الورقية وهي تحلق بعيدًا مع الرياح، ويعرف أنه في مكان ما هناك أطفال آخرون كونوا صفاً يتحرك من جانب لآخر على نحو غير مستقر، وروءوسهم تتجه إلى السماء منتظرين أن تهبط عليهم جائزتهم. ومع لولو تعلمت كيف أكل الفلفل الأخضر الصغير نبيئًا على العشاء (مع كثير من الأرز)، وبعيدًا عن مائدة العشاء، جربت لحم الكلاب (صعب المضغ)، ولحم الثعابين (أصعب) والجراد المشوي (مقرمش). وعلى غرار معظم الإندونيسيين، تبع لولو فرقة من الإسلام يمكن أن تتسع معتقداتها لتشمل بقايا العقائد القديمة الأكثر روحانية والهندوسية. وكان يرى أن الرجل يستمد قوته مما يأكله، ووعدني أنه سيحضر لنا قريبًا قطعة من لحم نمر لنأكلها معًا.

هكذا كانت تسير الأمور، مغامرة واحدة طويلة، إثراء لحياة صبي صغير. وفي خطابات لجدي وجدتي كنت أسجل بصدق الكثير من هذه الأحداث، وأنا واثق بأن طرودًا من الشيكولاته وزبدة الفول السوداني الأكثر رقيًا ستتبع هذه الخطابات. لكن لم تكن الخطابات تحمل كل ما أمر به،

فبعض الأشياء وجدت أنه من الصعب تفسيرها؛ فلم أخبر جديّ عن وجه الرجل الذي جاء يطرق بابنا في أحد الأيام وفي وجهه حفرة عميقة في المكان الذي من المفترض أن تكون فيه أنفه، وصوت الصغير الذي صدر منه وهو يسأل أمي بعض الطعام، ولم أذكر لهما أيضًا تلك المرة التي أخبرني فيها أحد زملائي في منتصف فسحة اليوم الدراسي أن شقيقه الرضيع توفي الليلة السابقة بسبب روح شريرة جلبتها الرياح، والرعب الذي تراقص في عيني صديقي لوهلة قبل أن يطلق ضحكة غريبة ويلكمني في ذراعي ويطلق ساقيه للريح. ولم أذكر تلك النظرة الخاوية التي ارتسمت على وجه الفلاحين في العام الذي لم تهطل فيه الأمطار قط، وانحناء أكتافهم وهم يتجولون حفاة في الحقول القاحلة المتشقة وينحنون كثيرًا ليفتتوا التربة الزراعية بين أصابعهم، ولم أكتب عن إحباطهم العام التالي عندما هطلت الأمطار دون توقف لما يزيد عن شهر، مما أدى إلى ارتفاع منسوب المياه في النهر والحقول حتى إن المياه كانت تتدفق في الشوارع وقد وصلت إلى مستوى خصري، والعائلات تتزاحم لإنقاذ ما يملكون من الماعز والدجاج حتى بعد أن جرفت المياه أجزاءً من أكواخهم.

عرفت أن العالم عنيف، ولا يمكن توقع ما سيحدث فيه وغالبًا ما يكون قاسيًا، ورأيت أن جديّ لا يعرفان شيئًا عن مثل هذا العالم، ولم يكن هناك مغزى من إزعاجهما بأسئلة لا يستطيعان الإجابة عليها. وفي بعض الأحيان، عندما كانت أمي تعود من العمل كنت أخبرها عن الأشياء التي رأيتهما أو سمعت عنها، وكانت تضرب براحه يدها على جبهتي وتستمع إلي باهتمام، وتبذل قصارى جهدها في تفسير ما تستطيع، وكنت دائمًا أقدر هذا الاهتمام؛ فصوتها ولسة يدها كانا يمثلان لي الأمان، لكن معلوماتها عن الفيزيانات والتعاويد ومصارعة الديوك جعلت هناك الكثير من الأشياء التي أود تعلمها، فكل شيء جديد عليّ كان جديدًا عليها، وكنت أخرج من تلك الحوارات وأنا أشعر أن أسئلتني قد منحتها سببًا غير ضروري للقلق. لذا فقد اتجهت للولو أطلب منه الإرشاد والنصح، ولم يكن للولو شخصًا كثير الكلام، لكن من المريح أن تكون معه، وكان يقدمني لعائلته وأصدقائه

بصفتي ابنه، لكن الأمور بيننا لم تتطور إلى أكثر من نصائح مباشرة، ولم يتظاهر أن علاقتنا أكثر مما هي عليه حقًا، وأنا تفهمت هذه المسافة، فقد كانت تعني ضمناً وجود ثقة بيننا كرجلين، وبدت معلوماته عن العالم لا تنضب؛ فلم تتضمن هذه المعلومات كيفية تغيير الإطار الذي تسرب منه الهواء، أو الثغرات في لعبة الشطرنج فحسب، بل كان يعرف أمورًا تتصف بقدر كبير من المراوغة، وطرقًا للتعامل مع المشاعر التي كانت تنتابني، وطرقًا لشرح ألغاز القدر المستمرة.

على سبيل المثال مسألة كيفية التعامل مع المتسولين الذين كانوا ينتشرون في كل مكان؛ فقد كانوا مَعرّض للمرضى من الرجال والنساء والأطفال الذين يرتدون ملابس رثة تغطيها القاذورات، وبعضهم فقد ذراعيه والبعض الآخر فقد قدميه، وبعضهم ضحايا لمرض الإسقربوط أو شلل الأطفال أو الجذام يسرون على أيديهم أو يتدحرجون على الأرصفة المزدحمة في عربات بالية، وسيقانهم ملتوية خلفهم مثل البهلوانات المتخصصين في تنفيذ حركات صعبة بأجسادهم. في البداية كنت أرى أمي تعطي نقودًا لأي شخص يتوقف عند باب بيتنا أو يمد لها يده ونحن نسير في الشوارع. بعد ذلك عندما أصبح من الجلي أن فيضان الآلام لا ينتهي كانت تنتقي من تمنحهم نقودًا بعد أن تعلمت تقييم درجة المأساة، ورأى لولو أن حساباتها الأخلاقية مثيرة للإعجاب لكنها سخيفة، وكلما رأني أنهج نهجها وأمنح المتسولين العملات القليلة التي أمتلكها رفع حاجبيه وانتحى بي جانبًا وسألني: «كم معك من النقود؟»

فكنت أفرغ جيبِي وأقول: «ثلاثون روبية.»

«وكم عدد المتسولين في الشارع؟»

حاولت أن أتخيل عدد من مر إلى جوار منزلنا في الأسبوع المنصرم، فيقول بمجرد أن يظهر عليّ أنني لا أستطيع إحصاء العدد: «أرأيت؟ من الأفضل أن تدخر أموالك وتحرص على ألا ينتهي بك الأمر أنت شخصياً في الشارع.» وكان يطبق المبدأ نفسه مع الخدم الذين كان معظمهم فلاحين شبابًا وصلوا إلى المدينة حديثاً ويعملون غالباً لدى عائلات ليسوا أحسن حالاً

منهم بكثير، ويرسلون النقود إلى أهلهم في القرية أو يدخرون ما يكفي لأن يبدؤا أعمالهم الخاصة. وعندما كان لولو يري أن لديهم طموحًا، كان يساعدهم لبدءوا أعمالهم الخاصة، وكان يتسامح بصفة عامة مع صفاتهم الشخصية غير المألوفة؛ فقد استأجر لأكثر من عام شابًا طيبًا يحب أن يرتدي ملابس نسائية في عطلة نهاية الأسبوع، وكان لولو يحب الطعام الذي يطهوه، لكنه كان من الممكن أن يطرد الخدم دون أي شعور بالذنب إذا كانوا غير مهرة أو كثيري النسيان أو يكلفونه نقودًا كثيرة، وكان يشعر بالحيرة عندما أحاول أنا أو أمي أن نحميمهم من حكمه عليهم.

وقد قال لي لولو في أحد الأيام بعد أن حاولت أمي أن تتحمل هي اللوم لإسقاط جهاز راديو من على الخزانة: «إن أمك رقيقة القلب، وهذه صفة جميلة في النساء لكنك ستكون رجلًا يومًا ما، ويجب على الرجل أن يتحلى بمزيد من العقل.»

وقال إن هذا ليس له علاقة بما إذا كان المرء طيبًا أم شريرًا، أو يحب الناس أو يكرههم، إنها مسألة تقبل الحياة بشروطها. شعرت بضربة عنيفة في الفك، ونظرت إلى أعلى إلى وجه لولو الذي يتصبب عرقًا.

«انتبه، وأبق يديك مرفوعة لأعلى.»

تدربنا نصف ساعة أخرى قبل أن يقرر لولو أن وقت الراحة قد حان، كانت ذراعاي تؤلماني، ورأسي يخفق بألم مستمر، أخذنا إبريقًا مليئًا بالماء وجلسنا بالقرب من بحيرة التماسيح.

وسألني: «أتشعر بالتعب؟»

سقط جسدي للأمام وأنا أومئ له بالإيجاب بصعوبة، فابتسم وشمر عن إحدى ساقيه ليحك الجزء الخلفي من ساقه، فلاحظت سلسلة من الندبات المسننة التي تمتد من الكاحل لأعلى حتى منتصف قصبة ساقه.

«ما هذه؟»

«إنها علامات تركتها الطفيليات منذ أن كنت في غينيا الجديدة، إنها ترحف داخل حذاء الجيش أثناء السير في المستنقعات، وعندما تنزع الجوارب في المساء تجدها ملتصقة في هذا المكان منتفخة من امتصاص الدماء، وعندما

تنثر عليها الملح تموت، لكن عليك أن تحفر في جسدك بسكين ساخن لاستخراجها.»

مررت أصبعي على إحدى الندبات بيضاوية الشكل، وكانت ناعمة وخالية من الشعر في الأماكن التي تعرض فيها الجلد للحرق، وسألت لولو عما إذا كانت قد آلمته.

فقال وهو يرتشف جرعة ماء من الإبريق: «بالطبع كانت مؤلمة، لكن في بعض الأحيان لا يهملك هل الأمر مؤلم أم لا، إنما يهملك فقط القيام بما عليك أن تقوم به.»

ساد بيننا صمت لبعض الوقت وكنت أراقبه بطرف عيني، وأدركت أنني لم أسمعه قط يتحدث عما يشعر به، لم أره قط غاضباً أو حزيناً، لقد بدا وكأنه يعيش في عالم من الأسطح الصلبة والأفكار المحددة بدقة، وفجأة قفزت إلى ذهني فكرة غريبة.

فسألته: «هل رأيت في حياتك شخصاً يُقتل؟»

فنظر إلى الأسفل وقد باغته السؤال.

فأعدته عليه مرة أخرى: «هل رأيت؟»

فقال: «نعم.»

«هل كان المشهد دامياً؟»

«نعم.»

فكرت لدقيقة وسألت: «لماذا قُتل الرجل؟ أعني الرجل الذي رأيت؟»

«لأنه كان ضعيفاً»

«هذا كل شيء؟!»

فهز لولو كتفيه وعاد ليغطي ساقه التي كشفها، وقال: «عادة ما يكون هذا كافياً، فالناس يستغلون ضعف الآخرين، إنهم بالضبط مثل الدول في هذا الأمر؛ فالرجل القوي يستولي على أرض الضعيف، ويجعل الضعيف يعمل في حقوله، وإذا كانت زوجة الرجل الضعيف جميلة فإن القوي سيأخذها.» وتوقف ليأخذ رشفة أخرى من الماء ثم سألني: «أيهما تفضل أن تكون؟»

لم أجب عليه، فنظر بعينين شبه مغمضتين إلى السماء، وقال في النهاية وهو ينهض على قدميه: «من الأفضل أن تكون قويًا، وإذا لم تستطع أن تكون قويًا، كن ذكيًا وتحالف مع شخص قوي، لكن من الأفضل دائمًا أن تكون أنت نفسك قويًا دائمًا.»

كانت أُمِّي تراقبنا من داخل المنزل، وهي تجلس إلى مكتبها تصحح الأوراق، وكانت تتساءل في نفسها: ما الذي يتحدثان عنه؟ دماء وأحشاء على الأرجح، وربما ابتلاع المسامير، فمثل هذه الأمور مبهجة للرجال.

وأطلقت ضحكة عالية ثم توقفت، فهذا ليس عدلاً، لقد كانت ممتنة بالفعل لاهتمام لولو بي، فلم يكن سيعامل ابنه بطريقة مختلفة، وكانت تعلم أنها محظوظة لطيبة قلب لولو. وضعت أُمِّي أوراقها جانبًا وراقبتني وأنا أمارس تمارين الضغط، وأخذت تفكر في أن ابنها يكبر بسرعة، وحاولت أن تتخيل نفسها يوم وصولنا؛ أم في الرابعة والعشرين من عمرها ومعها طفل في رعايتها، ومتزوجة من رجل لا تكاد تعرف تاريخه أو بلده، وأدركت في ذلك الوقت أنها لم تكن تعلم حينها إلا أمورًا قليلة، وأنها كانت تحمل براءتها مع جواز سفرها الأمريكي، وكان من الممكن أن تصبح الأمور أسوأ، بل أسوأ بكثير. لقد توقعت أن تكون هذه الحياة الجديدة صعبة، وقبل أن تغادر هاواي حاولت أن تتعلم كل ما يمكنها عن إندونيسيا: تعداد سكانها؛ فهي خامس دولة في العالم من حيث تعداد السكان وبها المئات من القبائل واللهجات المحلية، وحاولت معرفة تاريخها مع الاستعمار؛ إذ احتلتها في بادئ الأمر هولندا أكثر من ثلاثة قرون، ثم اليابان إبان الحرب العالمية الثانية، سعيًا وراء التحكم في مخزونها الكبير من النفط والمعادن والأخشاب، وممركتها من أجل الاستقلال بعد الحرب وظهور مقاتل من أجل الحرية اسمه سوكارنو ليكون أول رئيس للبلاد. ومنذ عهد قريب نُحِّي سوكارنو لكن التقارير تقول إنه كان انقلابًا غير دموي، وإن الشعب أيد التغيير؛ إذ قالوا إن سوكارنو أصبح فاسدًا، مستبدًا يعتمد على الخطب المتوهجة لإثارة مشاعر الجماهير، وشديد الانجذاب للشيوعيين.

وإندونيسيا دولة فقيرة ومتخلفة وغريبة تمامًا، هذا هو ما كانت تعرفه. وكانت مستعدة لمواجهة الدوستاريا والحمى، واستعدت لعدم وجود الماء الساخن في الحمامات، وأن عليها أن تجلس القرفصاء على حفرة في الأرض لتتبول، واستعدت لانقطاع الكهرباء كل بضعة أسابيع، وللجو الحار وللناموس المستمر. إنها أمور مزعجة حقًا، لكنها كانت أقوى مما تبدو عليه، بل أقوى حتى مما كانت تعرف عن نفسها. وعلى أية حال كان هذا أحد أسباب انجذابها للولو بعد رحيل باراك؛ الوعد بشيء جديد ومهم، مساعدة زوجها في إعادة بناء بلد في مكان مشحون ومليء بالتحديات بعيدًا عن متناول يد والديها.

لكنها لم تكن مستعدة للوحدة، الوحدة الدائمة مثل ضيق التنفس، لم يكن بإمكانها أن تشير إلى شيء محدد بدقة؛ لقد رحب بها للولو ترحيبًا حارًا وبذل كل ما في وسعه لجعلها تشعر بالألفة ووفر لها جميع سبل الراحة التي يستطيع، وعاملتها عائلته بلباقة وكرم، وعاملت ابنها كما لو أنه أحد أبنائها.

لكن شيئًا ما حدث بينها وبين للولو في العام الذي افترقا فيه؛ في هاواي كان للولو مفعماً بالحياة، وشديد التوق لتنفيذ خطته، ولبلاً عندما يكونا وحدهما كان يخبرها كيف ترعرع وهو صبي إبان الحرب ثم رأى والده وشقيقه الأكبر يرحلان عن الأسرة لينضمّا إلى جيش الثورة، وسمع نبأ مقتلهما وضياح كل شيء، وكيف أضرم الجيش الهولندي النيران في منزلهم فهربوا إلى الريف، وكيف كانت والدته تبيع مجوهراتها قطعة قطعة في مقابل الطعام. وقد أخبرها للولو أن الأمور ستتغير بعد رحيل الهولنديين وأنه سيعود للتدريس في الجامعة، وسيكون جزءًا من ذلك التغيير.

لكنه لم يعد يتحدث بهذه الطريقة، في الواقع أصبح نادرًا ما يتحدث إليها على الإطلاق، إلا عندما تكون هناك ضرورة لذلك أو عندما تتحدث هي إليه، وغالبًا لا يكون ذلك إلا عن مهمة حالية مثل إصلاح تسرب ماء، أو التخطيط لرحلة لزيارة أحد أقربائه البعيدين. كان الأمر كما لو أنه انجذب إلى مكان مظلم سري، لا يمكن لأحد الوصول إليه مصطحبًا معه أكثر جزء

مشرق من ذاته. وفي بعض الليالي كانت تسمعه وهو مستيقظ — بعد أن يأوي الجميع إلى الفراش — يتجول في المنزل ومعه زجاجة من الويسكي المستورد غارقاً في أسراره، وفي ليالٍ أخرى كان يضع مسدساً أسفل وسادته قبل أن يخلد للنوم، وكلما سألته أُمِّي ما الخطب صدها بلباقة قائلاً إنه متعب. وأصبح كما لو أنه لم يعد يثق بالكلمات وما تحمله من مشاعر. ساورت والدتي الشكوك أن هذه المشكلات تتعلق بعمل لولو، فعندما وصلت كان يعمل جيولوجياً في الجيش، يمسح الطرق والأنفاق. كان عملاً مرهقاً للعقل وغير مجز مادياً؛ فشراء الثلجة وحدها كلفه مرتبه في شهرين، وأصبح معه زوجة وطفل يتكفل بهما ... فلا عجب أنه كان مكتئباً. ورأت أُمِّي أنها لم تقطع كل هذه المسافة لتكون عبئاً عليه، فقررت أن تتحمل هي الأخرى الجزء الخاص بها من المسؤولية.

وسريعاً ما عثرت على عمل في تدريس اللغة الإنجليزية في السفارة الأمريكية لرجال الأعمال الإندونيسيين — وهو جزء من برنامج مساعدات الولايات المتحدة للدول النامية — وساعدتها النقود لكنها لم تخفف من وحدتها. ولم يكن رجال الأعمال الإندونيسيون مهتمين كثيراً بتفاصيل اللغة الإنجليزية الدقيقة، وحاول العديد منهم التقرب منها. في السفارة كان الأمريكيون في الغالب رجالاً متقدمين في السن يهتمون بعملهم في وزارة الخارجية، أما رجال الاقتصاد أو الصحافة — الذين كانوا يخفون فجأة لشهور — فلم يكن من الواضح ما وظيفتهم أو صلتهم بالسفارة، وبعضهم كان صورة للوجه القبيح للأمريكيين، فكانوا يميلون إلى السخرية من الإندونيسيين حتى يكتشفوا أنها متزوجة من إندونيسي، وعندها يحاولون التذرع بحجة للإفلات من الإحراج كأن يقول أحدهم: لا تعتبري كل ما أقوله جدياً فإن الجو الحار يذهب بعقلي، وكيف حال ابنك؟ إنه ولد رائع. ومع ذلك فهؤلاء الرجال كانوا يعرفون البلد جيداً، أو أجزاء منها على الأقل، وحتى المخابئ التي دفنت فيها الهياكل العظمية. وعلى الغداء أو أثناء محادثات عابرة كانوا يخبرونها أشياء لم تكن تعرفها من الأخبار الصحفية التي تُنشر؛ شرحوا لها كيف أن سوكارنو قد سبب قلقاً شديداً للحكومة

الأمريكية التي كانت تنتابها الهواجس بالفعل بسبب زحف الشيوعية عبر الهند الصينية، وخطبه الرنانة وسياسة عدم الانحياز، لقد كان سيئاً بالضبط مثل لومومبا أو جمال عبد الناصر، لكنه كان أسوأ بسبب الأهمية الاستراتيجية لإندونيسيا. وانتشرت شائعات تقول إن المخابرات الأمريكية قد لعبت دوراً في الانقلاب، مع أن أحداً لم يكن متأكداً من هذا، لكن الأمر الأكيد هو أن القوات العسكرية بعد الانقلاب اجتاحت الريف بحثاً عن متعاطفين شيوعيين مع النظام، وكان عدد القتلى عرضة للتقديرات المختلفة، فالبعض قدره ببضع مئات من الآلاف أو ربما نصف مليون، وحتى رجال المخابرات المحنكين لم يعرفوا العدد.

وقد علمت أُمِّي من التلميحات والهمسات الجانبية أننا وصلنا إلى جاكارتا بعد أقل من عام من أكثر حملات القمع وحشية وسرعة في العصر الحديث، وامتلاّت نفسها خوفاً من فكرة أنه يمكن ابتلاع التاريخ بهذا الشكل، بالطريقة نفسها التي يمكن للأرض الثرية والخصبة ابتلاع أنهار الدماء التي كانت تتدفق في الشوارع، والطريقة التي استطاع بها الناس استكمال أعمالهم وفوق رؤوسهم صور عملاقة للرئيس الجديد كما لو أن شيئاً لم يحدث، كشعب منشغل بتطوير نفسه. وعندما اتسعت دائرة أصدقائها من الإندونيسيين كان بعضهم على استعداد أن يخبرها بقصص أخرى عن الفساد الذي تفشى في الجهات الحكومية، وعمليات الابتزاز التي تقوم بها الشرطة والجيش، والصناعات التي نشأت من أجل عائلة الرئيس وحاشيته، وبعد كل قصة جديدة كانت تذهب إلى لولو وتسأله سرّاً: «هل هذا صحيح؟»

وهو لم يكن يخبرها شيئاً، وكلما ازدادت أسئلتها أصبح هو أكثر تمسكاً بصمته الهادئ، وكان يسألها: «لماذا تقلقين نفسك بمثل هذه الأحاديث؟ لم لا تشتريين ثوباً جديداً للحفل؟» وفي النهاية، اشتكت لأحد أقرباء لولو، وهو طبيب أطفال كان يرضع لولو أثناء الحرب.

وقد قال لها قريبه برفق: «إنك لا تفهمين.»

«أفهم ماذا؟»

«ظروف عودة لولو؛ إنه لم يخطط للعودة من هاواي بهذه السرعة كما تعرفين. ففي أثناء التطهير استدعي جميع الطلاب الذين يدرسون بالخارج دون تقشير، وسحبت منهم جوازات السفر، وعندما هبط لولو من الطائرة لم تكن لديه فكرة عما قد يحدث بعد ذلك. إننا حتى لم نره؛ فقد اصطحبه المسؤولون بالجيش واستجوبوه، وأخبروه أنه جرى تجنيده وسيذهب لأدغال غينيا الجديدة لمدة سنة. لقد كان من المحظوظين، إذ كان حال الطلاب الذين كانوا يدرسون في دول الكتلة الشرقية أسوأ بكثيرًا، الكثير منهم لا يزالون في السجن أو اختفوا.»

وقال لها مرة أخرى: «لا ينبغي لك أن تقسي على لولو، من الأفضل أن ينسى المرء مثل هذه الأوقات.»

غادرت أمي منزل قريبه وهي تشعر بدوار، وفي الخارج كانت الشمس في كبد السماء والهواء مليئًا بالغبار، لكن بدلًا من أن تستقل سيارة أجرة إلى المنزل بدأت تسير دون أن تعرف إلى أين تتجه. ووجدت نفسها في حي للأثرياء حيث يقطن الدبلوماسيون وقادة الجيش في منازل واسعة لها بوابات عالية من الحديد المطروق، ورأت سيدة حافية القدمين ترتدي شالًا ممزقًا تعبر بوابة مفتوحة وتسير على الطريق الذي يقود إلى داخل المنزل حيث كان مجموعة من الرجال يغسلون أسطولا من السيارات من طراز مرسيدس-بنز ولاند روفر. صاح فيها أحد الرجال وأمرها أن تغادر، لكن المرأة وقفت في مكانها، ومدت أمامها يدًا ضامرة تستجدي بها والظلال تخفي وجهها، وفي النهاية وضع رجل آخر يده في جيبه ورمى إليها بضع عملات، ركضت المرأة خلف العملات بسرعة مذهلة وهي ترفع عينيها من حين لآخر تتفحص الطريق في شك، وهي تجمع النقود وتضعها في صدرها. «القوة»؛ علقت الكلمة في ذهن أمي مثل اللعنة. في أمريكا تظل مسألة القوة هذه بصفة عامة مختفية عن الأنظار حتى يبحث المرء بنفسه أسفل السطح؛ أي حتى يزور أحد الأماكن المغلقة المخصصة لقبائل الهنود الحمر أو يتحدث إلى شخص أسود بعد أن يكسب ثقته. لكن القوة هنا واضحة لا تعرف تمييزًا، عارية، دائمًا حية في ذاكرتك، لقد أخذت القوة لولو وأعادته

مرة أخرى في الوقت الذي ظن فيه أنه هرب منها، مما جعله يشعر بأهميتها، وجعلته يدرك أن حياته ليست ملكه، هكذا سارت الأمور؛ فالمرء لا يستطيع أن يغير شيئاً، كل ما يمكنه عمله هو أن يعيش وفقاً للقواعد، وهي قواعد بسيطة إذا تعلمها، وهكذا عقد لولو معاهدة سلام مع القوة، وتعلم حكمة النسيان، بالضبط كما فعل زوج أخته الذي جمع الملايين من عمله كمسئول رفيع المستوى في شركة نفط قومية، وبالضبط كما حاول شقيق آخر له أن يفعل إلا أنه أخطأ في حساباته وآل به الحال الآن إلى سرقة قطع من الفضة كلما جاء في زيارة، وبيعها بعد ذلك مقابل السجائر.

وتذكرت ما أخبرها به لولو ذات مرة عندما مست أسئلتها المتواصلة عصباً حساساً، إذ قال: «الإحساس بالذنب رفاهية لا يقدر عليها سوى الأجانب، مثل قول ما يبدر إلى ذهنك.» إنها لم تكن تعرف ما يبدو عليه الأمر عندما يخسر المرء كل شيء، عندما يستيقظ ويجد أحشاءه تتقطع من الجوع، لم تعرف كم يمكن أن يكون الطريق إلى الأمن مزدحماً وغادراً، فبدون التركيز المطلق، من السهل أن ينزلق المرء ويعود إلى الوراثة.

إنه محق بالطبع، إنها أجنبية، بيضاء من الطبقة المتوسطة صفاتها الوراثية تحميها سواء أكانت تريد الحماية أم لا، فبإمكانها دائماً أن تغادر إذا ما ساءت الأمور، وهذه الإمكانية كانت تنفي أي شيء من الممكن أن تقوله للولو، وهذا هو الحاجز الذي لا يمكن اختراقه بينهما. وفي تلك اللحظة نظرت من النافذة ووجدت أنني ولولو قد انتقلنا من مكاننا والحشائش أصبحت مسطحة في المكان الذي كنا نجلس فيه، هذا المشهد جعلها ترتجف، فنهضت على قدميها وقد ملأها رعب مفاجئ. إن القوة تأخذ ابنها.

وعندما أعود وأفكر في تلك الفترة أجد أنني لست واثقاً بأن لولو كان يفهم جيداً ما كانت أمني تمر به في تلك السنوات، ولماذا كانت الأشياء التي كان يبذل قصارى جهده ليوفرها لها تزيد المسافة بينهما. إنه لم يكن رجلاً يطرح على نفسه مثل هذه الأسئلة، بل كان يحافظ على تركيزه، وعلى مدار

الفصل الثاني

الفترة التي عشناها في إندونيسيا استمر نجمه في الصعود، وبمساعدة زوج شقيقته حصل على عمل جديد في مكتب العلاقات الحكومية بشركة نفط أمريكية. وانتقلنا إلى منزل في حي أفضل، وحلت السيارة محل الدراجة البخارية، وحل التلفزيون ومذياع لبث الصوت بكفاءة عالية محل التماسيح والقرد تاتا، وأصبح بإمكان لولو أن يحجز لنا عشاء في نادي الشركة ويوقع على الفاتورة، وفي بعض الأحيان كنت أسمعه وأمي يتجادلان في غرفة نومهما عن رفضها حضور حفلات العشاء التي تقيمها الشركة حيث يرت رجال الأعمال الأمريكيين من تكساس ولويزيانا على ظهر لولو ويتفاخرون بالرشا التي دفعوها للحصول على حقوق التنقيب عن النفط في الحقول البحرية الجديدة، في حين تشتكي زوجاتهم لأمي من طبيعة المساعدة الإندونيسية، وكان يسألها كيف سيكون شكله إذا ذهب وحده، ويذكرها أنهم شعبها، وهنا يعلو صوت أمي ليصبح صراخًا تقريبًا وهي تقول إنهم «ليسوا» شعبي.

ومع ذلك فمثل هذه المناقشات نادرًا ما كانت تحدث، وقد ظلت علاقة لولو وأمي يسودها الود عند ميلاد أختي مايا وانفصالهما وطلاقهما في النهاية، وحتى المرة الأخيرة التي رأيت فيها لولو بعد عشر سنوات عندما ساعدته أمي على السفر إلى لوس أنجلوس للعلاج من مرض في الكبد تسبب في وفاته وهو في الواحدة والخمسين من عمره. أما التوتر الذي لاحظته فكان يتعلق في المقام الأول بالتغير التدريجي في سلوك أمي تجاهي. لقد كانت دائمًا تشجعني على أن أتشرب الثقافة الإندونيسية بسرعة، وقد جعلني هذا إلى حد ما أتمتع باكتفاء ذاتي ولا أطلب الكثير نظرًا للميزانية المحدودة، وجعلني حسن الخلق بالمقارنة بالأطفال الأمريكيين الآخرين؛ لقد علمتني أن أحترق المزيج من الجهل والغرور الذي كان في أغلب الأحيان صفة للأمريكيين بالخارج، لكنها أصبحت تدرك — مثل لولو بالضبط — الهوة الكبيرة التي تفصل بين فرص الحياة المتاحة أمام أمريكي وتلك المتاحة أمام إندونيسي، وعرفت إلى أي جانب تريد أن يكون ابنها، فقررت أنني أمريكي، وحياتي الحقيقية توجد في مكان آخر.

تركزت جهودها المبدئية على التعليم، ومع عدم توفر النقود المناسبة كي ألتحق بالمدرسة الدولية حيث يدرس معظم الطلاب الأجانب في جاكرتا، فقد رتبت منذ لحظة وصولنا كي تضيف إلى تعليمي في المدارس الإندونيسية منهجاً دراسياً أمريكياً أدرسه بالمراسلة.

وفي ذلك الوقت تضاعفت جهودها، فطوال خمسة أيام في الأسبوع كانت تدخل إلى غرفتي في الرابعة صباحاً، وتجبرني على تناول طعام الإفطار وتعطيني دروساً في اللغة الإنجليزية لمدة ثلاث ساعات قبل أن أذهب إلى المدرسة وتذهب هي إلى عملها. وقد قاومت هذا النظام بشدة، لكن في مقابل كل وسيلة كنت أتدبرها، سواء أكانت غير مقنعة (مثل ألم في معدتي) أو حقيقية بصورة لا تقبل النقاش (مثل أن عيني تغمضان كل خمس دقائق)، كانت أُمي تكرر على مسامعي بصر أقوى وسيلة دفاعية لديها:

«هذا الأمر ليس نزهة لي أنا أيضاً أيها الصبي.»

ثم كانت هناك المخاوف التي تظهر من حين لآخر فيما يخص سلامتي، وصوت جدتي يتصاعد. وأذكر أنني عدت إلى المنزل بعد أسدل الليل ستائره في أحد الأيام لأجد أن هناك فرقة بحث كبيرة محتشدة في فناء منزلنا، لم تبد أُمي سعيدة ولكنها شعرت بارتياح شديد لرؤيتي حتى إنها استغرقت عدة دقائق لتلاحظ أن جورباً مبتلاً ومتسخاً بالوحل ملفوفاً حول ساعدي.

«ما هذا؟»

«ماذا؟»

«هذا، لماذا تلف ساعدك بجورب؟»

«لقد جرحت نفسي.»

«دعني أر.»

«الأمر ليس بهذه الخطورة.»

«دعني أر يا باري.»

فنزعت الجورب لأزيعها جرحاً طويلاً يمتد من الرسغ إلى المرفق، بعيداً عن الوريد ببوصة واحدة لكنه عميق عند العضلة حيث يظهر لحم دامٍ من أسفل الجلد، وعلى أمل أن تهدأ شرحت لها ما حدث وهو أنني وصديقي

سافرنا متطفلين إلى مزرعة عائلته، ثم بدأت الأمطار تهطل، وفي المزرعة كان هناك مكان رائع للتزلق على الوحل، وكانت هناك أسلاك شائكة تعين حدود المزرعة، و ...

صرخت أُمي: «لولو!»

وعندما تقص أُمي هذه القصة الآن فإنها تضحك عند هذه النقطة، ضحكة أم سامحت ابنها على الأخطاء التي مضت، لكن نبرتها تتغير تغيراً طفيفاً عندما تتذكر أن لولو اقترح أن ننتظر إلى الصباح لتضميد الجرح، وأنه كان عليها أن تهرب جارنا الوحيد الذي يمتلك سيارة بالصباح في وجهه ليصطحبنا إلى المستشفى. وتتذكر أُمي أن معظم الأضواء كانت مطفأة في المستشفى عندما وصلنا، ولا يوجد أي موظف في الاستقبال، وتتذكر صوت خطواتها المضطربة تتردد عبر الرواق حتى وجدت أخيراً شاخين يرتديان شورت لعبة الملاكمة يلعبان الدومينو في غرفة صغيرة في الخلف، وعندما سألتهما أين الأطباء، أجابها الرجل بابتهاج: «نحن الأطباء» واستكملا لعبتهما قبل أن يرتديا سرواليهما ويخيطان ذراعي بعشرين غرزة تركت ندبة قبيحة المنظر. وطوال ذلك الوقت، كان هناك شعور يسيطر عليها أن حياة طفلها ربما تضع عندما يغيب عن ناظرها، وأن جميع من حولها سيكون مشغولاً في محاولة النجاة بنفسه حتى إنه لن يلاحظ، وأنه عندما نظرت حولها وجدت أنه سيكون معها الكثير من المتعاطفين لكن لا أحد سيقف إلى جوارها وهي تقاوم المصير الذي يهددها.

وأدرك الآن أن مثل تلك الأمور، غير الملموسة مثل النصوص الدراسية والخدمات الطبية، هي التي أصبحت محور تركيز دروسها معي، فكانت تقول لي: «إذا أردت أن تكون إنساناً فإنك بحاجة إلى بعض المبادئ»:

الأمانة: ما كان ينبغي للولو أن يخبئ الثلاجة في حجرة التخزين عندما جاء مسئولو الضرائب، حتى إذا كان الجميع — ومنهم مسئولو الضرائب أنفسهم — يتوقعون مثل هذه الأمور. العدالة: لا ينبغي لأولياء أمور الطلاب الأكثر ثراءً أن يهدوا المدرسين أجهزة تليفزيون في شهر رمضان، وليس من حق أطفالهم أن يفتخروا بالدرجات العالية التي يحصلون عليها. الصراحة:

إذا لم يعجبك القميص الذي اشتريته لك في عيد ميلادك يجب أن تقول هذا بدلاً من أن تتركه في قاع خزانة ملابسك. استقلال الرأي: إذا كان الأطفال يستهزئون بالصبي الفقير بسبب الطريقة التي يقص بها شعره فلا يعني هذا أن تفعل مثلهم.

لقد كان الأمر كما لو أنه بالسفر حول منتصف العالم — بعيداً عن الاعتداد بالنفس والنفاق الذي كشفته الألفة — استطاعت أمي أن تعبر عن فضائل ماضيها الغرب أوسطي وتعرضها بصورة مركزة. المشكلة هي أنه لم يكن لديها سوى قليل من وسائل التأكيد؛ فكلما انتحت بي جانباً لتقدم لي إحدى هذه النصائح أوأمأت لها موافقاً، ولكن كان يجب أن تعرف أن الكثير من أفكارها كانت غير عملية. وكل ما فعله لولو هو أنه شرح لي فقط الفقر والفساد والتدافع المستمر من أجل الأمان، لكنه لم يخترعها، فقد ظلت تحيط بي وولدت داخلي شكاً لا يعرف الرحمة، فثقة أمي في الفضائل السامية تعتمد على إيمان لم يكن عندي، إيمان رفضت هي أن تصفه بأنه ديني، إيمان أخبرتها خبرتها أنه تدنيس للمقدسات؛ إنه إيمان بأن الأشخاص العقلانيين المتفكرين يمكنهم أن يشكّلوا قدرهم. وفي أرض ظلت فيها الحتمية أداة ضرورية لتحمل الصعاب، حيث كانت الحقائق المطلقة تظل منفصلة عن حقائق الحياة اليومية، كانت هي شاهدة وحيدة للإنسانية العلمانية، جندياً للنمو ديل،^٢ وفيالق السلام،^٣ والليبرالية التي تقول بها المنظمات.

ولم يكن لها في كل هذا سوى حليف واحد؛ السلطة البعيدة لأبي؛ فأصبحت بصورة متزايدة تذكّرني بقصته؛ كيف نشأ فقيراً في دولة فقيرة في قارة فقيرة، وكيف كانت حياته صعبة، صعبة مثل أي شيء قد يكون لولو واجهه، لكنه لم يختر أسهل الطرق ولم يلجأ إلى استخدام كل وسيلة تتاح أمامه لتحقيق أهدافه. لقد كان مجتهداً وأميناً مهما كلفه الأمر، وقاد حياته وفقاً لمبادئ تطلبت نوعاً مختلفاً من الصلابة، مبادئ وعدته بشكل

^٢ برنامج للإنعاش الإقتصادي والإجتماعي وضعه روزفلت في أربعينيات القرن الماضي.
^٣ فرق متطوعين كانت ترسل للبلاد المتخلفة للمساعدة.

أرقى من القوة، ورأت أُمي أنني سأسير على نهجه، ولم يكن لدي خيار، فهذا الأمر مستقر في جيناتي.

«يمكنك أن تشكرني على شكل حاجبيك ... فقد كان حاجبا أبيك خفيفين وصغيرين، لكنك ورثت عقلك وشخصيتك عنه.»

أصبحت رسالتها تضم السود بصفة عامة، فكانت تعود إلى المنزل محملة بكتب عن حركة الحقوق المدنية، وتسجيلات لماهاليا جاكسون وأحاديث الدكتور كينج. وعندما أخبرتني قصصًا عن أطفال المدارس في الجنوب الذين كانوا مجبرين على قراءة كتب تنازلت عنها لهم مدارس البيض الأكثر ثراءً، لكنهم استكملوا تعليمهم ليصبحوا أطباء ومحامين وعلماء، شعرت بخجل لأنني أعارض الاستيقاظ مبكرًا والمذاكرة في الصباح. وإذا أخبرتها عن مسيرات الاستعراض العسكري التي قام بها فريق الكشفة الإندونيسي أمام الرئيس، فقد تذكر مسيرة من نوع آخر، مسيرة أطفال لا يكبروني سنًا من أجل الحرية. فكل رجل أسود كان ثورجود مارشال أو سيدني بواتيه، وكانت كل سيدة سوداء فاني لو هامر أو لينا هورن. وأن يكون المرء أسود يعني أن يكون المستفيد من ميراث عظيم، ومصير خاص، وأعباء مجيدة لا يقوى على تحملها سوانا.

إنها أعباء قُدر لنا أن نتحملها بأبهة، فقد أشارت أُمي أكثر من مرة إلى أن «هاري بيلافونت هو أكثر الرجال وسامة على ظهر الكوكب.»

كان هذا هو السياق الذي رأيت فيه صورة الرجل الأسود في مجلة لايف الذي حاول أن يخلع عنه بشرته. وأتخيل أطفالاً سوداً آخرين في ذلك الوقت والآن يمرون بلحظات مشابهة من تجلي الحقائق. ربما تتجلي هذه اللحظات في أوقات مبكرة للبعض؛ فيحذر الآباء أبناءهم من عبور حدود منطقة محددة بعينها، أو يشعرون بالإحباط لأن شعرهم ليس كشعر الدمية «باربي» بصرف النظر عن كيف تُمشط وتنعذب، أو قصة إهانة الوالد أو الجد على يد صاحب عمل أو ضابط، التي يسمعها الطفل صدفة عندما يكون من المفترض أنه نائم. قد يكون من الأسهل لطفل أن يتلقى الأخبار السيئة في

جرعات صغيرة ويسمح لنظام دفاع أن يتكون داخله، مع أنني أشك أنني كنت من المحظوظين؛ إذ تمتعت بفترة طفولة خالية من الشك في الذات. أعلم أن رؤية ذلك المقال كانت قاسية، كمين تعرضت فيه للهجوم. لقد حذرتني والدتي من المتعصبين، فهم جهلة غير مثقفين يجب أن يتجنبهم المرء. وإذا لم أكن قادرًا بعد على التفكير في كوني مخلوقًا فانيًا فقد ساعدني لولو على فهم احتمال التعرض لعجز المرض، أو تشوهات الحوادث، أو أقول نجم الحظ. فاستطعت بنجاح التعرف على طمع منتشر أو قسوة في الآخرين، وفي بعض الأحيان في نفسي. لكن تلك الصورة أخبرتني بشيء آخر: أن هناك عدوًا خفيًا، عدوًا يمكنه أن يصل إليّ دون علم أحد، أو حتى دون علمي أنا شخصيًا. وعندما عدت إلى المنزل في تلك الليلة من مكتبة السفارة، ذهبت إلى الحمام ووقفت أمام المراة ووجدت جميع حواسي وأطرافي كما هي، وبدوت كما أنا دائمًا، وتساءلت هل أَلَمْ بي شيء. أما البديل الآخر الذي كان أمامي فلم يكن أقل إثارة للرعب وهو أن جميع الكبار ممن حولي يعيشون في غمرة الجنون.

ستمر تلك النوبة القوية الأولى من القلق، وسأقضي عامي المتبقي في إندونيسيا كما أمضيت ما قبله. وحافظت على ثقة لم تجد ما يبررها دائمًا، ومهارة لا يمكن كبتها للإزعاج، لكن نظرتي تغيرت للأبد. وفي عروض التلفزيون الأجنبية التي بدأت تذاع في المساء، بدأت ألاحظ أن «كوسبي» لم يفز قط بالفتاة في مسلسل I Spy، وأن الرجل الأسود في فيلم Mission Impossible ظل طوال الوقت تحت الأرض. ولاحظت أنه لا يوجد أحد مثلي في كتيب الكريسماس الدعائي لشركة «سيرز وروباك وشركاه» التي كان جدي وجدتي يرسلانها لنا، وأن بابا نويل كان رجلًا أبيض اللون. احتفظت بهذه الملاحظات لنفسني، مقررًا أن أُمي إما أنها لم تشاهدها أو أنها تحاول حمايتي، وإنني يجب ألا أريها أن محاولتها قد فشلت. وكنت لا أزال أثق بحب أُمي، لكنني أصبحت أواجه احتمال أن ما تروييه عن العالم ومكانة أبي فيه غير كاملة بطريقة ما.

الفصل الثالث

استغرقت بعض الوقت حتى تعرفت عليهما في الزحام، في البداية عندما انفتحت الأبواب الجرامة كان كل ما استطعت أن أميزه هو صورة غير واضحة لوجوه مبتسمة متلهفة تنظر باتجاه الحاجز. ثم التقطت عيناى رجلاً طويل القامة يميل شعره إلى اللون الفضي يقف في آخر الحشد، ومعه سيدة قصيرة لا تكاد تظهر وهي تقف إلى جواره ذات وجه شبيهه بالبومة وترتدي نظارة دائرية، بدأ الاثنان يلوحان لي، لكن قبل أن ألوح لهما اختفيا وراء زجاج نصف شفاف.

نظرت إلى مقدمة الصف فرأيت عائلة صينية يبدو أنها تواجه بعض المشكلات مع مسؤولي الجمارك. كانت رفقة تلك الأسرة ممتعة طوال الرحلة من هونج كونج، فكان الأب يخلع حذاءه ويسير جيئةً وذهاباً في الممرات، والأطفال يصعدون فوق المقاعد، والأم والجدة تجمعان الوسائد والأغطية وتثرثران معاً دون توقف. وفي تلك اللحظة كانت العائلة تقف ساكنة تماماً، تحاول أن تختفي عن الأنظار، وعيونهم تتابع بصمت الأيدي التي تقلب في جوازات سفرهم وأمتعتهم بهدوء يثير الخوف. وكان الأب يذكرني بلولو بشكل ما، فنظرت إلى القناع الخشبي الذي كنت أحمله في يدي والذي أهداني إياه صديق أُمي مساعد الطيار الإندونيسي الذي اصطحبني في حين وقفت هي ولولو وأختي الجديدة مايا على البوابة. أغلقت عيني ووضعت القناع على وجهي. كانت تنبعث من الخشب رائحة جوز الهند والقرفة، وشعرت

بنفسي أنجرف عبر المحيطات وفوق السحب إلى الأفق البنفسجي عائداً إلى المكان الذي كنت فيه يوماً ما ...

صاح أحد باسمي، فسقط القناع إلى جانبي ومعه حلم يقظتي، ورأيت مرة أخرى جدي وجدتي يقفان يلوحان لي بحماس. هذه المرة لوحت لهما، ثم دون أن أفكر أعدت القناع على وجهي مرة أخرى، وجعلت رأسي تتمايل في رقصة قصيرة غريبة. ضحك جدائي وأشار إليّ ولوحا مرة أخرى حتى ربت مسئول الجمارك على كتفي وسألني هل أنت أمريكي، فأومأت له بالإيجاب وسلمته جواز سفري.

فقال لي: «تفضل» ثم طلب من العائلة الصينية أن تتنحي جانباً. أغلقت الأبواب الجرارة خلفي، واحتضنتني جدتي ووضعت حول رقبتني عُقداً من الحلوى واللبان، وألقى جدي ذراعه حول كتفي وقال إن القناع تحسن لا جدال فيه. واصطحباني إلى السيارة الجديدة التي اشتريتها، وعلمني جدي كيف أشغل جهاز التكييف. قدنا السيارة في الطريق السريع، ومررنا بمطاعم الوجبات السريعة، والنزل رخيصة التكلفة، وأسواق لبيع السيارات المستعملة محاطة بسياج مزين. وأخذت أحدثهم عن الرحلة وعن كل شخص تركته في جاكارتا، وأخبرني جدي بما خططاه لحفل عشاء الترحيب بعودتي، وقالت جدتي إنني سأحتاج إلى ملابس جديدة للمدرسة.

ثم فجأة، توقف الحوار، فأدركت أنني سأعيش مع غريبين عني. لم تبد الترتيبات الجديدة سيئة عندما شرحتها لي أُمِّي في البداية. فقالت إنه حان الوقت كي ألتحق بمدرسة أمريكية، وإنني سأراجع سريعاً جميع دروس المنهج الذي درسته بالمراسلة، وقالت إنها ومايا ستلحقان بي في هاواي قريباً للغاية — عام على الأكثر — وإنها ستحاول أن تأتي في الكريسماس. وذكرتني كم كان الوقت الذي قضيته مع جدي الصيف السابق ممتعاً؛ الآيس كريم وأفلام الكرتون والأيام التي أمضيناها على الشاطئ، وقالت: «لن يكون عليك أن تستيقظ في الرابعة صباحاً»، وهو أمر وجدت أنه أكثر جاذبية لي.

لم أدرك أن جدي وجدتي تغيراً كثيراً إلا في ذلك الوقت عندما بدأت أتكيف في الحياة معهما لفترة غير محددة ورأيت كيف تسير حياتهما؛ فبعد أن رحلت أنا وأمي باعا المنزل الكبير القديم الذي كان قريباً من الجامعة، واستأجرا شقة صغيرة بها غرفتان للنوم في مبنى شاهق الارتفاع في شارع بريطانيا، وترك جدي عمله في تجارة الأثاث ليعمل وسيطاً في مجال بيع بوالص التأمين على الحياة، ونظراً لأنه لم يكن قادراً على إقناع نفسه بأن الناس تحتاج ما يحاول بيعه لهم، ولكونه حساساً تجاه الرفض، لم يسر العمل على ما يرام. ومساء كل يوم أحد، كنت أشاهده وهو يصبح أكثر عصبية عندما يمسك بحقيبتة، ويضع منضدة قابلة للطي أمام مقعده، ويلحق أي شيء قد يشتت انتباهه حتى يدفعنا في النهاية للخروج من غرفة المعيشة، ويحاول أن يحدد مواعيد مع عملاء محتملين عبر الهاتف. وفي بعض الأحيان عندما كنت أتسلل على أطراف أصابعي إلى المطبخ كي أحضر زجاجة مياه غازية، كنت أسمع اليأس وهو يتسلل إلى صوته، وفرة الصمت التي تتبع هذا اليأس عندما يفسر له الشخص على الطرف الآخر من الهاتف لماذا يوم الخميس غير مناسب والثلاثاء ليس أفضل كثيراً، ثم أسمع تنهيدة جدي العميقة بعد أن يضع سماعة الهاتف، ويده تتحسس الملفات على حجره باضطراب مثل لاعب الورق الذي يواجه ورطة كبيرة. وفي النهاية، يرق بعض الناس، فيذهب عنه الألم، ثم يدخل جدي إلى غرفتي ليحكى لي قصصاً عن شبابه أو الدعاية الجديدة التي قرأها في مجلة «ريدرز دايجست». وإذا كانت المكالمات التي أجراها سارت على ما يرام في تلك الليلة فقد يناقش معي بعض الأمور التي لا يزال يفكر فيها؛ مثل ديوان الشعر الذي بدأ يكتبه، والرسم التخطيطي الذي يوشك أن يتحول إلى لوحة، ومخططات المساقط الأفقية لمنزل أحلامه المتكامل الذي تتاح فيه وسائل الراحة والرفاهية التي سيحصل عليها بضغطة زر، وسيحتوي على حديقة خلابة. ورأيت كيف أن خططه كلما ابتعدت عن نطاق إمكانية تحقيقها ازدادت جرأة، لكني رأيت فيها بعضاً من حماسه القديم، وكنت أحاول عادة أن أبتكر أسئلة مشجعة تساعد على إبقاء حالته النفسية جيدة. ثم

عند نقطة ما أثناء حديثه، نلاحظ نحن الاثنين أن جدتي تقف في الردهة خارج غرفتي، ورأسها يميل جانباً في انتقاد.

«ماذا تريدان يا مادلين؟»

«هل انتهيت من مكالماتك الهاتفية يا حبيبتي؟»

«نعم يا مادلين، انتهيت من مكالماتي الهاتفية، إنها العاشرة مساءً!»

«لا داعي للصراخ يا ستانلي، لقد أردت فقط أن أعرف هل بإمكانني

الذهاب إلى المطبخ.»

«أنا لا أصرخ! يا إلهي، لا أفهم لماذا ...» وقبل أن ينتهي من عبارته

تكون جدتي قد انسحبت إلى غرفة نومهما، فيترك جدي غرفتي ونظرة الاكتئاب والغضب ترسم على وجهه.

أصبحت مثل هذه الأحاديث أمراً معتاداً لي؛ إذ كانت المناقشات بين جدي وجدتي تسير بنمط روتيني يتكرر كثيراً، نمط نشأ نتيجة الحقيقة التي نادراً ما تُذكر وهي أن دخل جدتي كان أعلى من جدي. وقد أثبتت أنها رائدة في مجال عملها إلى حد ما؛ فقد كانت أول سيدة تعمل نائبة رئيس بنك محلي، ومع أن جدي كان يحب دائماً أن يقول إنه كان يشجعها لتتقدم في عملها، فقد أصبح عملها موضوعاً حساساً ومثيراً بينهما فالعمولات التي كان يتلقاها كانت لا تسد سوى أقل القليل من فواتير الأسرة.

لم تكن جدتي تتوقع تحقيق هذا النجاح، فنظرًا لأنها لم تكن حاصلة على درجة جامعية فقد بدأت العمل سكرتيرة للمساعدة في تحمل نفقات مجيئي غير المتوقع إلى الدنيا. ولكنها كانت سريعة البديهة وسديدة الرأي ولديها القدرة على العمل المتواصل، وأخذت تتقدم في عملها ببطء، وكانت تتصرف مع من حولها بأمانة وشرف حتى وصلت إلى باب لم تكن الكفاءة كافية لاجتيازها. وظلت في وظيفتها عشرين عاماً، نادراً ما تحصل على إجازات وتشاهد نظراءها من الرجال وهم يواصلون الصعود على درجات السلم الوظيفي، ويلجئون للغش قليلاً باستخدام معلومات تتسرب أثناء لعب الجولف وأثناء الطريق إلى مبنى النادي، ويصبحون رجالاً أثرياء.

وأكثر من مرة، قالت أُمِّي لجَدَتِي إنه لا ينبغي أن يفلت البنك من العقاب على سياسة التفرقة الجنسية الصارخة التي يتبعها، لكن جدتي كانت تستخف بملاحظات أُمِّي وتقول إن كل شخص بإمكانه أن يجد سببًا للشكوى من شيء معين. ولم تشك جدتي قط، وكل صباح كانت تستيقظ في الخامسة صباحًا، وتبدل المِوِو مِوِو — رداء النساء التقليدي في هاواي — غير المهندم الذي كانت ترتديه في المنزل، وترتدي بذلتها الأنيقة وحذاءً عالي الكعب، وتضع البودرة على وجهها، وترتدي مشدًا للوسط (كورسيه)، وتزين شعرها الخفيف ثم تستقل حافلة السادسة والنصف صباحًا لتصل إلى مكتبها في وسط المدينة قبل الجميع. ومن حين لآخر، كان يأخذها التفاخر بعملها رغمًا عنها وتستمتع بإخبارنا بالقصة الخفية وراء الأخبار المالية المحلية. وعندما كبرت أسرت إلي بأنها لم تتوقف قط عن الحلم بمنزل له سياج خشبي أبيض، وقضاء الأيام وهي تخبز أو تلعب البريدج أو تعمل متطوعة في المكتبة المحلية. وقد فاجأني هذا الاعتراف، إذ إنها نادرًا ما كانت تعبر عن أمنياتها أو الأشياء التي تندم عليها. قد يكون صحيحًا، أو لا يكون، أنها كانت ستفضل الحياة البديلة التي تخيلتها لنفسها، لكنني أصبحت أفهم أن حياتها المهنية كانت في وقت لم يكن فيه عمل الزوجة خارج منزلها مصدرًا للتباهي، سواء لها أو لجدي، وأنه لم يكن يمثل إلا سنوات تضييع، ووعودًا تتحطم. والشيء الذي كانت جدتي تعتقد أنه يجعلها قادرة على الاستمرار هو احتياجات أحفادها، والجَلَد الذي كان يتميز به أجدادها، فقد قالت أكثر من مرة: «المهم حقًا يا باري، هو أنكم بخير أيها الأولاد.»

هكذا أصبح جدي وجدتي يعيشان. كانا لا يزالان يعدان طبق الساشيمي للضيوف الذين أصبحوا قليلي التردد على منزلهما، وكان جدي لا يزال يرتدي قميص هاواي عند ذهابه إلى المكتب، وكانت جدتي لا تزال تصر على أن نخطبها بلقب «توت»، ولكن فيما عدا ذلك، فقد جف نبع الطموح الذي حملاه معهما إلى هاواي، حتى أصبح الانتظام — انتظام المواعيد والتسليّة والطقس — هو العزاء الوحيد لهما. وكانا يتذمران من حين لآخر من أن

اليابانيين قد استولوا على الجزر، وكيف تحكم الصينيون في الموارد المالية للجزيرة. وفي أثناء جلسات استماع قضية ووترجيت، انتزعت أمني منهما اعترافاً بأنهما انتخبا نيكسون، مرشح القانون والنظام، في انتخابات عام ١٩٦٨م. ولم نعد نذهب إلى الشاطئ أو نتنزه معاً، وفي المساء كان جدي يشاهد التلفزيون في حين كانت جدتي تجلس في غرفتها تقرأ قصص ألغاز جرائم القتل. وأصبح مصدر الإثارة في حياتهما هو شراء ستائر جديدة أو مجلد منفصل. لقد بدا كما لو أنهما تجنبنا تلك القناعة التي تأتي في منتصف العمر؛ أي التقاء النضج النابع من الخبرة الحياتية بما تبقى من العمر، والتقاء طاقة الإنسان بما هو متاح له من وسائل، والاعتراف بالإنجازات التي تحرر الروح. لقد قررا في وقت ما أثناء غيابي أن يقللا من خسائرها ويقبلا مجرد البقاء، ولم يعودا يريان أية غاية يتمنيان تحقيقها.

وعندما اقترب الصيف من نهايته، تزايد شوقي لبدء الدراسة، وكان اهتمامي الرئيسي هو أن أجد رفأً في مثل عمري، ومن وجهة نظر جدي وجدتي كان قبولي في «أكاديمية بوناو» إعلاناً ببداية شيء عظيم وسمواً في مكانة العائلة حتى إنهما لم يدخرا جهداً كي يجعلنا الجميع يعلم بهذا. فقد أصبحت أكاديمية بوناو، بعد أن أسستها البعثات التبشيرية عام ١٨٤١م، مدرسة إعدادية لها مكانتها، مكاناً يدرس فيه أبناء عليّة القوم في الجزيرة. وقد ساعدت سمعتها في إثناء أمني عن قرار إرسالني إلى إحدى الولايات الأمريكية، فقد أخبرها جدي وجدتي أن التحاقني بها لم يكن أمراً سهلاً إذ كانت هناك قائمة انتظار طويلة، ولم أحظ بفرصة القبول إلا بعد تدخل رئيس جدي في العمل الذي كان أحد خريجي الأكاديمية (يبدو أن أول تجربة لي مع سياسة العمل الإيجابي لتحسين أحوال الأقليات لم يكن لها علاقة بالعرق). كنت قد أجريت عدة مقابلات شخصية مع المسئولة عن القبول في أكاديمية بوناو الصيف السابق، وكانت سيدة مفعمة بالحيوية وتبدو شخصاً كفئاً لم يزعجها أن قدمي لا تكادان تلمسان الأرض وهي تسألني بالاحاح عن أهدافي المهنية. وبعد المقابلة أرسلتني السيدة أنا وجدتي في جولة

في حرم المدرسة، الذي كان مجمعاً يمتد لعدة أفدنة من الحقول وافرة الخضرة والأشجار الظليلة، ومبانٍ مدرسية قديمة مبنية بالحجارة وأخرى حديثة من المعدن والزجاج، وكانت هناك ملاعب تنس وحمامات سباحة واستديوهات تصوير. وفي أثناء الجولة تخلفنا قليلاً عن المرشد، وأمسك جدي ذراعي وهمس: «اللعة يا باري، هذه ليست مدرسة إنها جنة. يمكنك أن تجعلني أعود مرة أخرى لصفوف الدراسة معك.»

وصل مع خطاب القبول مظروف سميك يحتوي على المعلومات وضعتة جدتي جانباً لنقرأه بتأنٍ بعد ظهر أحد أيام السبت. وجاء في الخطاب: «مرحباً بك في عائلة بونا هو»، وجاء فيه أنه خُصصت لي خزانة، وأدرج اسمي في برنامج تناول الوجبة إلا إذا وضعنا علامة في المربع المخصص لغير ذلك، وكانت هناك قائمة بالأشياء التي ينبغي لي شراؤها؛ زي موحد للتربية البدنية، ومقص ومسطرة وأقلام رصاص رقم ٢، وآلة حاسبة (اختياري). قضى جدي المساء يقرأ كتاب المدرسة الإرشادي بالكامل وهو كتاب كبير يوضح التقدم المتوقع لي خلال السنوات السبع القادمة؛ مناهج المدرسة الإعدادية، والأنشطة خارج المقرر، وأسلوب تحقيق التفوق الشامل في عدة مجالات. ومع كل نقطة جديدة يزداد حماس جدي، فقد نهض عدة مرات وهو يضع إبهامه حيث توقف ويتجه إلى الغرفة حيث كانت جدتي تقرأ ويقول لها وصوته مليء بالدهشة: «ألق نظرة على هذا يا مادلين.»

ولهذا صحبني جدي بحماس شديد في يومي الأول في المدرسة، وأصر على أن نصل مبكراً، ولم يكن مبنى «كاسل هول» المخصص للطلاب في الصفين الخامس والسادس قد فتح أبوابه بعد. ولم يصل سوى حفنة من الأطفال، وكانوا منشغلين بمعرفة أخبار ما حدث في الصيف، جلسنا إلى جوار صبي صيني رشيق يضع جهازاً ضخماً لتقويم الأسنان يلتف بشرائط حول عنقه.

قال جدي للصبي: «مرحباً بك، هذا باري، وأنا جد باري. يمكنك أن تخاطبني جدي.» وصافح الصبي الذي كان اسمه فريدريك وقال له: «باري جديد هنا.»

فقال فريدريك: «وأنا أيضًا»، واشتركا معًا في حوار شيق. وجلست وأنا أشعر بالخلج حتى فتحت الأبواب أخيرًا وصعدنا السلم إلى الفصل. وعند الباب، ربت جدي على ظهر كلينا وقال وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة عريضة: «لا تفعلوا أي شيء كنت سأفعله أنا».

وقال فريدريك وهو يشاهد جدي يقدم نفسه للآنسة هيفتي مدرسة الفصل: «إن جدك خفيف الظل».

«نعم، إنه كذلك».

جلسنا إلى الطاولة ومعنا أربعة أطفال وبدأت الآنسة هيفتي، وهي سيدة متوسطة العمر مفعمة بالحيوية لها شعر رمادي قصير، تسجل الحضور. وعندما قرأت اسمي بالكامل، سمعت ضحكات مكتومة تتردد في أرجاء الغرفة، وانحنى فريدريك علي وقال: «ظننت أن اسمك هو باري».

وسألتني الآنسة هيفتي: «هل تفضل أن نناديك باسم باري؟ إن باراك اسم جميل للغاية، يقول جدك إن أباك كيني. لقد كنت أعيش في كينيا، أدرس لأطفال في مثل عمرك تقريبًا، وإنه لبلد رائع حقًا. هل تعلم إلى أية قبيلة ينتمي والدك؟»

أثار سؤالها المزيد من الضحكات، وظللت أنا دون أن أتفوه بكلمة لدقيقة، وعندما قلت في النهاية «لو»، أعاد صبي أشقر الشعر يجلس خلفي الاسم بصيحة استهزاء عالية مقلدًا صوت القرد. ولم يستطع الأطفال بعد ذلك السيطرة على أنفسهم، وتطلب الأمر من الآنسة هيفتي أن توبخ الفصل بقوة حتى يهدأ وانتقلنا، رحمة بي، إلى الشخص التالي في قائمة أسماء التلاميذ.

قضيت باقي اليوم حائرًا، وطلبت مني فتاة حمراء الشعر أن تلمس شعري، وكان من الواضح أن رفضي قد ألمها، وسألني ولد أحمر الوجه عما إذا كان أبي من آكلي لحوم البشر، وعندما عدت إلى المنزل كان جدي مستغرقًا في إعداد العشاء.

«كيف كان الحال؟ أليس من الرائع أن الآنسة هيفتي كانت تعيش في كينيا؟ أراهن أن هذا جعل اليوم الأول في المدرسة أسهل».

ذهبت إلى غرفتي وأغلقت الباب.

وسريعاً ما اعتاد الأطفال الآخرون على وجودي في الفصل، ومع ذلك فقد استمر شعوري بأنني لا أنتمي إلى المكان يزداد. وكانت الملابس التي اخترتها أنا وجدي قديمة الطراز للغاية، وبدا مظهر الصندل الإندونيسي مزرياً بعد أن كان جيداً للغاية في جاكرتا. وكان معظم زملائي في الفصل معاً منذ الحضانة، ويعيشون في مناطق متجاورة في منازل من طابقين بها حمامات سباحة، وآباؤهم دربوا الفرق نفسها التي تلعب في مسابقة البيسبول التي تنظمها «ليتل ليغ»، وأمهاتهم ممن يدعمن أنشطة بيع المخبوزات لجمع التبرعات. ولم يكن أي منهم يلعب كرة القدم أو كرة الريشة أو الشطرنج، وأنا لم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية إلقاء الكرة بشكل حلزوني أو الحفاظ على توازني وأنا على لوح التزلج.

كان الأمر بمنزلة كابوس لطفل في العاشرة من عمره. ومع ذلك، مع عدم ارتياحي في الشهر الأول فلم أكن أسوأ من الأطفال الآخرين المستبعبين الذين يصنفون في فئة من لا يمكن تقبلهم بسهولة؛ وقد ضمت هذه الفئة الفتيات اللاتي كن شديداً الطول أو الخجل، والصبي الذي كان مفرط النشاط إلي حد ما، والأطفال الذين منعته إصابتهم بالربو من حضور فصول التربية البدنية.

ومع ذلك، فكانت هناك طفلة أخرى في فصلي تذكرني بألم من نوع آخر. كان اسمها كوريتا، وقبل وصولي كانت هي الفتاة السوداء الوحيدة في الصف. كانت ممتلئة الجسد وسوداء البشرة ولا يبدو أن لديها أصدقاء كثيرين، ومنذ اليوم الأول كان كل منا يتجنب الآخر لكنه يراقبه من بعيد، كما لو أن أي اتصال مباشر بيننا سيذكرنا بشدة بعزلتنا.

وفي النهاية في أثناء فترة الفسحة في يوم حار سماؤه صافية من الغيوم وجدنا نفسي في الركن نفسه من الفناء. لا أذكر ما دار بيننا من حديث، لكنني أذكر أنها فجأة كانت تركز خلفي عبر القضبان الأفقية والعمودية التي يستعملها التلاميذ في اللعب، وكانت تضحك بسعادة وكنت أنا أغيظها وأراوغ بالركض بين تلك القضبان، حتى أمسكتني في النهاية وسقطنا على

الأرض لا نستطيع التقاط أنفاسنا. وعندما نظرت لأعلى رأيت مجموعة من الأطفال لم أر وجوههم بوضوح أمام وهج الشمس يشيرون إلينا ويقولون: «كوريता لديها حبيب! كوريता لديها حبيب!»

ارتفع صوت الغناء عندما التف حولنا أولاد آخرون. تمتعت: «إنها ليست حبيبتي.» ونظرت إلى كوريता أنتظر منها الدعم، لكنها كانت تقف مكانها تنظر إلى الأرض.

«كوريता لديها حبيب! لما لا تمنحها قبة أيها الحبيب؟»

فصرخت: «أنا لست حبيبها»، وركضت باتجاه كوريता ودفعتها برفق، فترنحت إلى الخلف ونظرت إليّ دون أن تقول شيئاً، فصرخت أنا مرة أخرى: «دعيني وشأني!» وفجأة أطلقت كوريता ساقها للريح وأخذت تركض أسرع فأسرع حتى اختفت عن الأنظار. وتصاعدت ضحكات السعادة من حولي. ثم دق جرس انتهاء الفسحة، وظهر المدرسون ليعيدونا إلى الفصول.

ظلت تلك النظرة التي ارتسمت على وجه كوريता قبل أن تركض تطاردني فيما تبقى من ظهيرة ذلك اليوم؛ نظرة خيبة الأمل والالتهام. وأردت أن أشرح لها بطريقة ما أن المسألة ليست شخصية؛ كل ما في الأمر أنه لم تكن لدي حبيبة قط ولا أرى حاجة لأن تكون لدي واحدة الآن. لكني لم أعرف حتى هل كان ذلك صحيحاً، كل ما كنت أعرفه هو أن وقت التفسير قد فات، وأنني تعرضت للاختبار وكانت النتيجة أنني غير كفء، وكلما اختلست النظر إلى مقعد كوريता رأيتها ورأسها ينحني على كتبها تبدو كما لو أن شيئاً لم يحدث، منطوية على نفسها ولا تطلب عطفاً من أحد.

خلقت خيانتني هذه مسافة بيني وبين الأطفال الآخرين، وعلى غرار كوريता تركوني وشأني تقريباً. كان لي عدد قليل من الأصدقاء وتعلمت ألا أتحدث كثيراً في الفصل، وتعلمت أن ألقى بكرة متذبذبة. لكن منذ ذلك اليوم شعرت أن جزءاً مني قد سحق وتدمر، ووجدت ملاذاً في الحياة التي كان جدي يحيانها؛ فبعد انتهاء اليوم الدراسي كنت أسير مسافة المجمعات السكنية الخمسة التي تفصل المدرسة عن منزلنا، وإذا كان في جيبني نقود أتوقف في بعض الأحيان عند كشك صحف يديره رجل أعمى كان يدعني أعرف المجلات

المصورة الجديدة التي ظهرت في الأسواق. وكان جدي يبقى في المنزل ليفتح لي الباب، وعندما ينام بعد الظهر أشاهد أفلام الكرتون ومسلسلات كوميديا الموقف أثناء إعادة عرضها. وفي الرابعة والنصف أوقظ جدي ونأخذ السيارة إلى وسط المدينة كي نقل جدتي. وأؤدي واجبي المنزلي وقت العشاء الذي كنا نتناوله ونحن نشاهد التلفيزيون، وأقضي باقي الأمسية أتفاوض مع جدي على البرامج التي سنشاهدها، ونتناول أحدث الوجبات الخفيفة التي عثر عليها في المتجر. وفي العاشرة مساءً أذهب إلى غرفتي (فبرنامج جوني كارسون يذاع في ذلك الوقت ومشاهدة هذا البرنامج لا تخضع للمناقشة)، وأخلد إلى النوم على أنغام موسيقى البرنامج الإذاعي «توب فورتى».

شعرت بالأمان وأنا في حضن الثقافة الأمريكية الاستهلاكية الناعم المتسامح، كان الأمر كما لو أنني سقطت في مرحلة سبات عميق، وفي بعض الأحيان أتساءل كم من الوقت كنت سأظل في هذه المرحلة إذا لم تكن جدتي وجدت ذلك التلغراف في صندوق البريد في أحد الأيام.

فقد قالت: «والدك سيأتي لرؤيتك الشهر القادم، بعد أسبوعين من وصول والدتك. سيظلان هنا حتى نهاية الاحتفال برأس السنة.»

طوت جدتي الورقة بعناية ووضعتها في أحد أدراج المطبخ، وظلت هي وجدي صامتين بالطريقة نفسها التي أتخيل أنها رد فعل من يخبره الطبيب أنه يعاني مرضاً عضالاً ولكن يمكن علاجه، ولدقيقة خيم علينا الصمت في الغرفة، ووقفنا متسمرين غارقين في أفكارنا.

وفي النهاية قالت جدتي: «حسناً، أظن أنه من الأفضل أن نبدأ في البحث عن مكان يمكنه الإقامة فيه.»

خلع جدي نظارته ومسح عينيه وقال: «لا بد أنه سيكون رأس سنة زاخراً بالأحداث.»

في أثناء فترة الغداء شرحت لمجموعة من الصبية أن والدي أمير.
«جدي هو الزعيم، أي ملك القبيلة ... مثل الهنود كما تعرفون، وهذا يجعل أبي أميراً، وهو سيتولى الحكم عندما يموت جدي.»

وسألني أحد أصدقائي ونحن نفرغ أطباقنا في سلة المهملات: «وماذا بعد ذلك؟ أعني، هل ستعود إلى هناك وتصبح أميراً؟»
«حسناً ... يمكنني إذا أردت هذا، إنها مسألة معقدة نوعاً ما لأن القبيلة مليئة بالمحاربين، مثل أوباما ... الذي يعني «الحربة الحارقة»، فكل رجل في قبيلتنا يريد أن يصبح هو الزعيم، لذا فعلى أبي أن ينهي هذه العداءات قبل أن أذهب.»

عندما خرجت هذه الكلمات من بين شفتي وشعرت بسلوك الأطفال يتغير تجاهي وأصبحوا أكثر فضولاً وألفة معي ونحن نصدم بعضنا بعضاً في الصف عائدين إلى الفصل، بدأ جزء مني يصدق هذه القصة. لكن جزءاً آخر مني كان يعرف أن ما أقوله مجرد كذبة؛ شيء اختلقته من فتات المعلومات التي عرفتتها من أمي. وبعد أسبوع من لقاء أبي بلحمه ودمه رأيت أنني أفضل صورته البعيدة، تلك الصورة التي كان بإمكانني تغييرها كما أشاء، أو أتجاهلها عندما يكون ذلك مناسباً. وإذا لم يكن أبي قد خيب أمني بالضبط فقد ظل شيئاً لا أعرفه، شيئاً مؤقتاً، ومخيفاً بصورة غامضة. أحست أمي بخوفي في الأيام المتبقية على وصوله، وأظن أنها كانت تعكس خوفها، ولهذا كان من بين مجهوداتها لإعداد الشقة — التي أجرتها من الباطن له — محاولتها أن تطمئنني أن لمّ الشمل سيمر بسلام. وقالت إنها كانت ترأسه طوال الفترة التي قضيناها في إندونيسيا وأنه يعرف كل شيء عني. وكان أبي، على غرار أمي، قد تزوج مرة أخرى وأصبح لدي خمسة أخوة وأخت يعيشون في كينيا، وقد تعرض لحادث سيارة شديد وكانت تلك الرحلة جزءاً من فترة النقاهة بعد أن مكث في المستشفى وقتاً طويلاً.
وقالت: «ستصبحان صديقين رائعين.»

وإلى جانب إخباري بأشياء عن أبي بدأت أمي تحشوني بمعلومات عن كينيا وتاريخها، وقد اختلست اسم «الحربة الحارقة» من كتاب عن جومو كينيا أول رئيس لكينيا. ولكن لم ينجح شيء مما أخبرتني به أمي في التخفيف من شكوكي، ولم أحتفظ إلا بالقليل من المعلومات التي أخبرتني بها، ولم تنجح في إثارة اهتمامي حقاً سوى مرة واحدة عندما أخبرتني أن

قبيلة أبي «لوو» شعب نيلي هاجر إلى كينيا من موطنه الأصلي على ضفاف أطول أنهار العالم. بدا هذا واعدًا، وكان جدي لا يزال يحتفظ برسم رسمه ذات مرة هو صورة طبق الأصل للوحة فنية أصلية لمصريين نحفاء باللون البرونزي يركبون مركبة ذهبية تجرها جياذ مرمرية. وكانت لدي فكرة عن مصر القديمة، والممالك العظيمة التي قرأت عنها، والأهرامات، والفراعنة، ونفرتيتي، وكليوباترا.

وفي أحد أيام السبت ذهبت إلى المكتبة العامة بالقرب من شقتنا، وبمساعدة أمين المكتبة العجوز صاحب الصوت المبحوح الذي تفهم مدى جدتي وجدت كتابًا عن شرق أفريقيا. ولكن لم يكن به أي ذكر للأهرامات، وفي الحقيقة، لم يكن هناك سوى فقرة قصيرة عن قبيلة «لوو»، واتضح أن الشعوب النيلية مصطلح يصف عددًا من القبائل المتنقلة التي نشأت أصلًا في السودان على ضفاف نهر النيل الأبيض في أقصى جنوب الإمبراطوريات المصرية. وكانت قبيلة «لوو» ترعى الماشية، وتعيش في أكواخ طينية، وتأكل وجبات من الذرة واليام — وهو من فصيلة البطاطا — وطعامًا آخر يسمى حبوب الدخن. وكان زيتها التقليدي شريطًا من القماش يغطي منطقة العورة يتدلى من حزام جلدي يحيط بالخصر. تركت الكتاب مفتوحًا على الطاولة، وخرجت دون أن أشكر أمين المكتبة.

وأخيرًا جاء اليوم الموعد، وتركتني الأنسة هيفتي أخرج مبكرًا من الفصل وهي تتمنى لي حظًا سعيدًا. تركت مبنى المدرسة مثل شخص محكوم عليه بالإعدام؛ كانت قدماي ثقيلتين ومع كل خطوة تقربني من منزل جديّ يعلو صوت خفقات قلبي، وعندما دلفت إلى المصعد وقفت دون أن أضغط الزر، فانغلق الباب ثم فتح مرة أخرى، ودلف رجل فلبيني عجوز يقطن في الطابق الرابع.

قال الرجل بسعادة: «جداك يقول إن والدك قادم لزيارتك اليوم. لا بد أنك تطير فرحًا.»

وعندما لم أستطع التفكير في أي مهرّب، بعد أن وقفت أمام باب الشقة ومددت بصري نحو أفق هونولولو فشاهدت سفينة بعيدة، ثم نظرت إلى

السماء بعين شبه مغمضة لأرى العصافير تدور في الهواء، دقت الجرس،
وفتحت جدتي الباب.

«ها هو ذا! تعال يا باري ... تعال قابل والدك..»

وهناك في مدخل الشقة غير المضاء رأيته: رجل طويل أسود يعرج قليلاً وهو يسير، وجثم على ركبتيه وطوقني بذراعيه وتركت أنا ذراعِي ينخفضان إلى جانبي. وخلفه كانت أُمِّي تقف يرتجف ذقنها كالعادة.
قال أبي: «حسنًا يا باري، من الجميل أن أراك بعد كل هذا الوقت، بل من الرائع جدًا.»

وأمسك بيدي وأدخلني إلى غرفة المعيشة، وجلسنا جميعاً معاً، وقال:
«أخبرتني جدتك أن أدائك ممتاز في المدرسة.»
فهزرت كتفي.

فقال جدتي: «أظن أنه يشعر بشيء من الخجل.» ثم ابتسمت ومسحت على رأسي.

فقال أبي: «حسنًا، لا يوجد ما يدعو لأن تخجل من أن أدائك ممتاز. هل أخبرتك أن إخوتك وأختك متفوقون أيضًا في دراستهم؟ أظن أن هذا الأمر يجري في دمائكم»، قالها ضاحكًا.

راقبته بحرص عندما بدءوا جميعاً يتحدثون؛ كان أنحف كثيرًا مما توقعت، وكانت عظام ركبتيه تكسر سيقان البنطلون في زوايا حادة، ولم أستطع أن أتخيله يرفع أيًا منهما من على الأرض. وإلى جواره كانت هناك عصا لها رأس عاجية غير مدببة تستند إلى الحائط، وكان يرتدي سترة زرقاء اللون، وقميصًا أبيض، وربطة عنق قرمزية اللون، ونظارته بارزة الحواف تعكس ضوء المصباح فلم أر عينيه بوضوح، لكن عندما نزع النظارة ليحك قصبه أنفه رأيت أنهما تميلان إلى اللون الأصفر قليلًا كعيني شخص أصيب بالمalaria أكثر من مرة. ورأيت أن جسده ضعيف، وكان حذرًا عندما كان يشعل سيجارة أو يمد يده إلى كوب الجعة. وبعد ساعة تقريبًا رأت والدتي أنه يبدو متعبًا ويحتاج أن ينال قسطًا من الراحة، وقد وافقها على ذلك. فالتقط حقيبة سفره ثم توقف في منتصف خطوته الواسعة، وبدأ يبحث في

الحقيقية حتى أخرج منها في النهاية ثلاثة تماثيل خشبية، أسد وفيل ورجل فاحم السواد يرتدي ملابس قبلية ويقرع طبلة، وأعطاني إياها.

فقلت أُمي: «قل شكرًا يا باري.»

فغمغمت: «شكرًا.»

نظرت أنا ووالدي إلى التماثيل المنحوتة وهي جامدة دون حياة في يدي، ولمس كتفي وقال برفق: «إنها أشياء صغيرة»، ثم أومأ لجدي وأخذها حقائبه معًا وهبطا إلى الشقة الأخرى.

شهر، هذه هي الفترة التي قضيناها معًا، معظم الأمسيات كنا نقضيها نحن الخمسة في غرفة معيشة شقة جدِّي، وكنا نقضي النهار في جولات بالسيارة حول الجزيرة أو في نزاهات قصيرة إلى أماكن لها علامات مميزة في حياة عائلتي: الأرض الذي كانت توجد عليها شقة والدي يومًا ما، والمستشفى التي ولدت فيها والتي أعيد بناؤها، وأول منزل لجدي في هاواي، قبل أن يقيما في منزلهما بشارع يونيفرستي أفينيو، وهو منزل لم أعرفه قط. كانت هناك الكثير من الأشياء التي عليه أن يخبرني بها في ذلك الشهر، والكثير من التفسيرات أيضًا. ومع ذلك فعندما أحاول أن أعصر ذاكرتي لأتذكر الكلمات التي قالها أبي، الحوارات والمواقف القليلة التي قد تكون دارت بيننا، أجد أنها ذهبت بلا رجعة. ربما تكون مطبوعة في أعماق ذاكرتي، وصوته — الذي يعد بذرة جميع المناقشات المتشابكة التي أحملها مع نفسي — لا يمكنني الوصول إليه الآن بالضبط مثل نمط جيناتي، لذا فإن كل ما أستطيع فهمه هو الإطار الخارجي الممزق. تقدم زوجتي تفسيرًا أبسط لهذا وهو أن الأبناء والآباء لا يكون لديهم الكثير دائمًا ليتحدثوا عنه معًا إلا إذا تولدت بينهم الثقة، وقد يكون هذا أقرب إلى الحقيقة إذ إنني كنت دائمًا ما أقف أمامه دون أن أنفوه بكلمة واحدة، وهو لم يدفعني قط للحديث. وتركني وكل ما لدي صور تظهر وتخبو في ذهني مثل الأصوات البعيدة؛ كأن أتذكره ورأسه ترجع للوراء وهو يضحك على واحدة من دعابات جدي وأنا ووالدتي نعلق زينة عيد الميلاد، وقبضته على كتفي وهو يقدمني إلى

أحد أصدقائه القدامى من الجامعة، وضيق حدقتي عينيه وتمرير أصابعه في لحيته الصغيرة المتناثرة وهو يقرأ كتبه المهمة.

كل ما أتذكره هو صورته وتأثيره على الآخرين؛ إذ إنه كلما تحدث — وإحدى ساقيه فوق الأخرى ويده الضخمتان ممتدتان إما لتوجيه الانتباه إلى شيء معين أو تشتيته، وصوته العميق الواثق المقنع الضاحك — رأيت تغيراً مفاجئاً في العائلة؛ فقد أصبح جدي أكثر نشاطاً وأعظم فكراً، ووالدتي أكثر حياءً، وحتى جدتي خرجت من جحرها في غرفة النوم وبدأت في مجادلته في أخبار السياسة والمال وهي تضرب الهواء ببديها ذات العروق الزرقاء لتوضح وجهة نظرها. كان الأمر كما لو أن وجوده استدعى روح الأيام القديمة وسمح لكل منهم أن يعود ليمارس دوره القديم؛ بدا الأمر وكأن الدكتور كينج لم يلق حتفه بعد إطلاق النار عليه قط، واستمر أنصار كينيدي في إرشاد الأمة، ولم تكن الحرب والشغب والمجاعة أكثر من مجرد نكسات مؤقتة، ولم يكن هناك شيء يخافون منه إلا الخوف نفسه. وقد أذهلتني هذه القوة الغريبة، ولأول مرة بدأت أفكر في أبي على أنه شيء حقيقي وقريب، بل حتى دائم. ومع ذلك فبعد بضعة أسابيع شعرت ببدا التوتر من حولي. فبدأ جدي يشكو من أن أبي يجلس في مقعده، وتذمرت جدتي وهي تغسل الأطباق قائلة إنها ليست خادمة أحد، وكانت والدتي تضغط على شفثيها وهي تحاول أن تتجنب عيني والديها ونحن نتناول العشاء. وفي إحدى الليالي أدرت التلفزيون لأشاهد فيلم كارتون خاص اسمه How the Grinch Stole Christmas، وفجأة تحولت الهمسات إلى صياح.

قال أبي: «باري، لقد شاهدت التلفزيون بما يكفي الليلة، ادخل إلى غرفتك وذاكر، ودع الكبار يتحدثون.» فوقفت جدتي وأطفأت التلفزيون وقالت: «لماذا لا تشاهد البرنامج في غرفة النوم يا باري.»

فقال أبي: «كلا يا مادلين، ليس هذا ما أعنيه، لقد ظل يشاهد هذا الجهاز طوال الوقت والآن حان الوقت كي يذاكر.»

حاولت أُمِّي أن تشرح له أننا في إجازة الكريسماس وأن هذا الكارتون هو المفضل في الكريسماس، وأنني كنت أنتظره طوال الأسبوع، وأنه «لن يستمر طويلاً».

«هذا هراء يا أنا، إذا كان الصبي قد انتهى من عمل الغد، يمكنه أن يبدأ في واجبات اليوم التالي، أو حتى الواجبات التي ستفرض عليه عندما يعود من الإجازة» ثم التفت إلي وقال: «أنا أقول لك يا باري إنك لا تذاكر بالجد الذي من المفترض أن تذاكر به، اذهب الآن قبل أن أغضب.»

دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب بعنف وأنا أسمع الأصوات تعلو من خلفي، فكان جدي يصر على أن هذا المنزل منزله وجدتي تقول إن أبي ليس لديه حق في أن يستأسد على الجميع، بما في ذلك أنا، بعد أن رحل عنا كل تلك الفترة. وسمعت والدي يقول إنهم يدللونني، وأنني أحتاج إلى حزم في التعامل، وسمعت والدي تقول لوالديها إن شيئاً لم يتغير بهما. وقفنا جميعاً في موقف الاتهام، وحتى بعد أن غادر أبي وجاءت جدتي لتقول إنه يمكنني مشاهدة آخر خمس دقائق في البرنامج، شعرت أن شيئاً قد تصدع بيننا جميعاً، عفاريت انطلقت من مخبأ قديم مغلق. وعندما شاهدت على شاشة التلفزيون الكائن جرينش وهو يعتزم تدمير رأس السنة ثم يتحول في النهاية بفضل إيمان المخلوقات ذات العيون الكبيرة السوداء الطيبة التي تسكن مدينة هوفيل، رأيت على حقيقته؛ مجرد كذبة، وبدأت أعد الأيام الباقية حتى يرحل أبي ويعود كل شيء إلى ما كان عليه.

في اليوم التالي أرسلتني جدتي إلى الشقة بالأسفل حيث كان يقطن أبي لأرى هل لديه ملابس بحاجة إلى الغسيل، طرقت الباب وفتح لي أبي وهو عاري الصدر. وبالداخل رأيت أُمِّي تكوي بعض ملابسه، كان شعرها معقوصاً خلف رأسها وعيناها مترققتين حزينتين كما لو أنها كانت تبكي. طلب مني أبي أن أجلس إلى جواره على الفراش، لكنني أخبرته أن جدتي تحتاج إليّ لأساعدتها وغادرت بعد أن أخبرته بالرسالة التي جئت بها. عدت لأعلى وكنت قد بدأت في تنظيف غرفتي عندما دخلت أُمِّي.

«لا ينبغي لك أن تغضب من والدك يا باري، إنه يحبك كثيرًا، لكنه يصر على رأيه في بعض الأحيان.»

فقلت دون أن أنظر إليها: «حسنًا.» وشعرت بعينها تتبعاني في أرجاء الغرفة حتى أطلقت في النهاية زفيرًا بطيئًا واتجهت إلى الباب. قالت: «أعلم أن هذا الأمر كله محير لك، وهو كذلك لي أنا أيضًا، فقط حاول أن تتذكر ما قلته لك، اتفقنا؟» ووضعت يدها على مقبض الباب ثم سألت: «هل تريدني أن أغلق الباب؟»

فأومأت لها بالإيجاب، لكن بعد أن غادرت بدقيقة واحدة عادت فأدخلت رأسها في الغرفة وقالت: «بالمناسبة، لقد نسيت أن أخبرك أن الآسة هيفتي دعت والدك ليذهب إلى المدرسة يوم الخميس، وتريد منه أن يتحدث إلى الفصل.»

لم يكن بوسعي تخيل أخبار أسوأ من هذه. وقضيت تلك الليلة واليوم الذي تلاها أحاول أن أقمع ما يراودني من أفكار حول ما لا يمكن تجنبه: وجوه زملائي في الفصل عندما يسمعون عن الأكواخ الطينية، وفضح جميع أكاذيبي، والدعابات الموجهة التي سأسمعها بعد ذلك. وفي كل مرة أتذكر فيها يتلوى جسدي كما لو أنه تلقى ضربة عنيفة في الصميم.

كنت لا أزال أحاول إيجاد طريقة لتبرير نفسي عندما دخل أبي إلى الفصل في اليوم التالي، رحبت الآسة هيفتي به بقوة، وعندما اتخذت مقعدي سمعت العديد من الأطفال يتساءلون ماذا يحدث. وأصبحت أكثر يأسًا عندما تبعه دخول مدرس الرياضيات الضخم من سكان هاواي السيد إيلدريدج الذي لا يقبل الهراء ومعه ثلاثون طالبًا من الفصل المجاور لنا، ترسم الحيرة على وجوههم.

بدأت الآسة هيفتي الحوار قائلة: «لدينا دعوة خاصة لكم اليوم، والد باري أوباما هنا اليوم، وقد قطع كل هذه المسافة من كينيا في أفريقيا ليخبرنا عن بلده.»

نظر الأطفال إليّ عندما وقف والدي، ورفعت أنا رأسي بعناد أحاول أن أركز على نقطة خاوية على السبورة خلفه، وعندما استطعت في النهاية

أن أعود بنفسي إلى أرض الواقع كان قد بدأ هو الحديث منذ فترة. كان ينحني على مكتب الأنسة هيفتي السميك المصنوع من خشب البلوط ويصف الصدع العميق في الأرض حيث ظهر الجنس البشري لأول مرة، وتحدث عن الحيوانات المفترسة التي لا تزال تجول السهول، والقبائل التي لا تزال تطلب من الصبي الصغير أن يقتل أسدًا كي يثبت رجولته، وتحدث عن عادات قبيلة «لوو» وكيف يُعامل الكبار بأقصى درجات الاحترام ويسنون القوانين التي يتبعها الجميع أسفل أشجار ضخمة. وأخبرنا عن صراع كينيا لتنال حريتها وكيف أراد البريطانيون أن يبقوا بها ويحكموا أهلها ظلمًا كما فعلوا في أمريكا. وكيف رزح الكثيرون تحت قيد العبودية بسبب لون بشرتهم فحسب مثلما حدث في أمريكا، ولكن الكينيين، مثل جميع من في الغرفة، كانوا يتوقون للحرية وتطویر أنفسهم عبر العمل الجاد والتضحية. وعندما انتهى من حديثه كانت الأنسة هيفتي تشع فخرًا، وجميع زملائي في الفصل يصفقون بحرارة، وقليل منهم استجمع شجاعته لي طرح أسئلة بدا أبي يفكر فيها جيدًا قبل الإجابة عليها. وانطلق جرس الغداء، فجاء السيد إيلدريدج إلي وقال: «إن والدك مثير للإعجاب حقًا.» وقال الصبي أحمر الوجه الذي سألني عن آكلي لحوم البشر: «والدك لطيف حقًا.»

وفي أحد الجوانب رأيت كوريتا تشاهد أبي وهو يودع بعض الأطفال، وبدأت عاقدة العزم على ألا تبتسم، ولم يبد على وجهها سوى نظرة رضا.

وبعد أسبوعين رحل أبي. وفي ذلك الوقت وقفنا معًا أمام شجرة الكريسماس لنلتقط بعض الصور، وهي الصور الوحيدة التي أحتفظ بها وتضمننا معًا، وأنا أحمل كرة سلة برتقالية اللون وهي هديته لي، وهو يستعرض رابطة العنق التي اشتريتها له (وقال لي وقتها: «سيعرف الناس أنني رجل مهم للغاية لأنني أرتدي رابطة العنق هذه.») وفي حفل موسيقي لـديف بروبك جاهدت كي أجلس بهدوء في القاعة المظلمة إلى جواره، وأنا لا أستطيع أن أتابع المعادلات الصوتية التي كان العازفون يقومون بها، وحرصت على أن أصفق وقتما

يصفق. ولأوقات قصيرة في اليوم كنت أستلقي إلى جواره ونحن الاثنان وحدنا في الشقة المؤجرة من الباطن من سيدة عجوز متقاعدة لا أذكر اسمها، والمكان مليء بالألحفة ومناديل المائدة وأغطية المقاعد المنسوجة من عقد من الخيط، وكنت أقرأ كتابي وهو يقرأ كتابه، وظل غامضاً في نظري؛ كيان حاضر إلى جوارى، وعندما كنت أقلد إيماءاته أو عباراته لا أعرف أصلها أو نتائجها، ولا أرى كيف تموت بمرور الوقت، ولكنني أصبحت معتاداً على رفقته. وفي يوم رحيله وبينما كنت أساعده أنا وأمي كي يحزم حقائبه أخرج أسطوانتين، من تلك المصممة لتدور خمسة وأربعين دورة في الدقيقة، في غلاف بني باهت، وقال: «باري، انظر هنا لقد نسيت أنني أحضرت لك هذه، إنها صوت قارتك.»

استغرق بعض الوقت ليعرف كيف يتعامل مع جهاز تسجيل جدي العتيق، ولكن في النهاية بدأت الأسطوانة تعمل، ووضع هو بحذر شديد الإبرة في مكانها. ثم بدأ ينبعث صوت موسيقى جيتار عالية النغمة، ثم أبواق حادة، وإيقاع قرع طبول، ثم الجيتار مرة أخرى ثم الأصوات واضحة ومليئة بالسعادة وهي تعلو فوق الإيقاع في الخلفية وتشجعنا. قال والدي: «تعال يا باري، ستتعلم من الأستاذ.» وفجأة بدأ جسده النحيل يتميل إلى الأمام وإلى الخلف، وكان الصوت يرتفع، وذراعه تتميلان وكأنهما تغزلان شبكة غير مرئية، وقدماه تتحركان على الأرض في حركة غير عادية، وكانت ساقه المصابة ثابتة لكن ردفه كان عالياً ورأسه إلى الخلف، ووركاه يتحركان في دائرة ضيقة. وتسارعت الأنغام، ودوى صوت الأبواق، وأغلق هو عينيه ليتابع استمتاعه، ثم فتح إحدى عينيه ليلقي نظرة علي، وارتمت ابتسامة ساذجة على وجهه الوقور، وابتسمت والدتي وجاء جدائي ليريا ما هذه الضوضاء. خطوت أولى خطواتي التجريبية وعياني مغمضتان وذراعاي تتميلان إلى الأسفل ثم إلى الأعلى، والأصوات تعلو. وكنت لا أزال أسمع، فعندما كنت أتابع خطواته على أنغام الموسيقى أطلق أبي صيحة سريعة مرحة وعالية؛ صيحة تترك الكثير خلفنا وتتوق للمزيد، صيحة تتوق للضحك.

الفصل الرابع

«إنني لن أذهب إلى حفلات بونا هو التافهة هذه مرة أخرى يا رجل.»
«نعم، هذا ما قلته المرة السابقة.»

جلست أنا وراي إلى إحدى الموائد وفككنا لفافة شطائر الهامبورجر. كان راي يكبرني بعامين، فكان في السنة الأخيرة وجاء إلى مدرستنا قادمًا من لوس أنجلوس العام السابق نتيجة لنقل والده من عمله في الجيش. ومع أن هناك فارقًا في السن بيننا فقد كان من السهل أن نصبح أصدقاءً وهو ما يرجع إلى حد بعيد إلى أننا نمثل معًا تقريبًا نصف عدد السود في مدرسة بونا هو الثانوية. وكنت أستمع برفقته، فقد كان يتمتع بدفع وخفة ظل متهورة تعوض عن إشارته الدائمة إلى حياته السابقة في لوس أنجلوس، وإلى حاشيته من النساء اللاتي كن، كما يزعم، لا يزلن يتصلن به هاتفياً كل ليلة مع بعد المسافة، وإلى إنجازاته السابقة في كرة القدم، وإلى المشاهير الذين عرفهم. وكنت أميل إلى ألا ألقى بالأل المعظم الأشياء التي يقولها، ولكن ليس جميعها، فقد كان صحيحًا على سبيل المثال أنه كان من أسرع العدائين في الجزيرة، وقال البعض عنه إنه كان في مستوى عدائي الأولبياد، هذا مع أن له كرشًا ضخماً لا يتناسب مع سرعة عدوه كان يهتز أسفل قميصه المشبع بالعرق كلما ركض، تاركًا وراءه المدربين والخصوم يهزون رءوسهم غير مصدقين. وعن طريق راي اكتشفت حفلات السود التي كانت تقام داخل الجامعة أو

خارجها في القواعد العسكرية، واعتمدت عليه في تسهيل طريقي إلى الأماكن غير المألوفة لي، وفي المقابل كنت أستمع إليه وهو يشكو من إحباطه. وكان يقول لي في تلك اللحظة: «أنا جاد هذه المرة، هؤلاء الفتيات عنصريات من الدرجة الأولى، جميعهن؛ الفتيات البيض والآسيويات، اللعنة عليهن، أولئك الآسيويات أسوأ من البيض، تظن أننا مصابون بمرض أو شيء من هذا القبيل.»

«ربما ينظرون إلى مؤخرتك الضخمة، يا رجل لقد ظننت أنك تتدرب..»
«أبعد يديك عن بطاطسي المقلية، إنك لست حبيبتي أيها الزنجي ... اشترِ لنفسك منها، ما الذي كنت أتحدث عنه؟»

«إذا رفضت فتاة الخروج معك فهذا لا يجعلها عنصرية.»

«لا تكن غيبياً، إنني لا أتحدث عن مرة واحدة فقط. فقد طلبت من مونيكا الخروج معها، وقالت لا، فقلت لها حسناً، إنك لست شديدة الإغراء على أية حال.» وتوقف راي كي يرى رد فعلي، ثم ابتسم واستأنف: «حسناً، ربما لم أقل لها هذا بالضبط، فقلت لها حسناً يا مونيكا، لكننا لا نزال أصدقاء مقربين. وبعد ذلك أعرف أنها ارتبطت بستيف ياماجوتشي «البدين»، ويسيران وهما متشابكا الأيدي كأنهما طائرا غرام. فأقول لنفسني حسناً الفتيات كثيرات من حولنا. فأطلب من بامبلا الخروج إلى الحفل الراقص معي، فتقول لي إنها لن تذهب، فأقول لا بأس، وعندما أصل إلى هناك، خمن من كان هناك يلف ذراعه حول ريك كوك، لقد كانت هي وتقول: «مرحباً يا راي» كما لو أنها لا تعرف ما يحدث. ريك كوك! ذلك اللعين الحقير لا يزيد عني شيئاً، أليس كذلك؟ لا شيء.»

وملاً فمه بملء يده من البطاطس وقال: «وبالمناسبة، هذا الأمر لا ينطبق عليّ وحدي، فلا أرى أن حالك أفضل مني في هذا المجال.»
فقلت في نفسي إن السبب في هذا هو أنني خجول، ولكنني لن أعترف بهذه المسألة له أبداً، فراي سوف يستغل الفرصة.

«أخبرني ماذا يحدث إذن عندما نخرج إلى حفل مع بعض الأخوات؟ ماذا يحدث؟ أنا سأخبرك ماذا يحدث، مفاجأة! إنهن يتوافدن علينا بسرعات

متلهفات. فتيات المدرسة الثانوية، وفتيات الجامعة، لا يهم. يتصرفن بلطف، كلهن بيتسمن، وتجد الواحدة منهن تقول: «بالطبع يمكنك الحصول على رقم هاتفي يا حبيبي»
«حسنًا...»

«حسنًا ماذا؟ اسمعني، لماذا لا تحصل على وقت أطول في اللعب في فريق كرة السلة؟ على الأقل اثنان منهم لا يتفوقان عليك في شيء، وأنت تعرف هذا، وهما يعرفان هذا، لقد رأيتك وأنت تتفوق عليهما في الأداء في الملعب، لا مجال للمنافسة بينكم. لماذا لم أبدأ أنا في فريق كرة القدم هذا الموسم، بصرف النظر عن العدد الكبير من التمريرات التي تسقط من يد الشاب الآخر؟ لا تخبرني أننا لم نكن سنحظى بمعاملة مختلفة إذا كنا من البيض، أو يابانيين أو من هاواي، أو حتى من الإسكيمو اللعين»
«ليس هذا ما أعنيه»
«ما الذي تعنيه إذن؟»

«حسنًا، إليك ما أعنيه. صحيح إنه من الصعب مواعدة الفتيات لأنه لا توجد فتيات سود في هذا المكان، لكن هذا لا يجعل جميع الفتيات هنا عنصريات. ربما يردن شخصًا يشبه آباءهن أو إخوتهن أو أي شخص آخر ونحن لسنا كذلك. وصحيح، قد لا أكون أحصل على الفرص التي يحصل عليها الآخرون في الفريق، ولكنهم يلعبون مثلما يلعب الفتية البيض وهذا هو الأسلوب الذي يحب المدرب اللعب به، ويفوزون بهذا الأسلوب الذي يلعبون به، وأنا لا أَلعب بهذا الأسلوب».

ثم أضفت وأنا أمد يدي لألتقط آخر ما تبقى من البطاطس التي يتناولوها: «أما أنت أيها البدين فأظن أن المدرب قد لا يحبونك لأنك أسود يظن نفسه أذكى ممن حوله، لكن قد يساعدك التوقف عن تناول هذه المقلبات التي تجعلك تشبه امرأة حاملًا في ستة أشهر، وهذا ما أعنيه»
نهض راي وكوم ما أمامه من مهملات محوّلًا إياها إلى كرة صغيرة وقال: «لا أدري يا رجل لِمَ تجد لهؤلاء القوم أعذارًا؟! دعنا نخرج من هنا، فحديثك أصبح معقدًا للغاية».

كان رأيي على حق، الأمور أصبحت معقدة. كان قد مر خمس سنوات على زيارة أبي، وكانت فترة هادئة، في الظاهر على الأقل، تميزها الطقوس والشعائر التي تتوقعها أمريكا من أبنائها؛ تقارير تُرسل لعائلي تخبرهم عن مستواي المتدني، واستدعاءات إلى مكتب الناظر، وعمل لنصف دوام في سلسلة مطاعم للهامبورجر، والإصابة بحب الشباب، واختبارات قيادة السيارات، والرغبات الجامحة. وأصبح لي عدد لا بأس به من الأصدقاء في المدرسة، وخرجت في مواعيد غريبة من حين لآخر. وإذا كانت الحيرة قد انتابتني في بعض الأحيان تجاه إعادة الترتيب الغامضة للمكانة التي تحدث بين رفاقي في الفصل — فبعضهم ترتفع مكانته وتتراجع مكانة الآخر اعتمادًا على نزوات أجسادهم أو طراز سياراتهم — فإني شعرت بالارتياح لأن وضعي كان يتحسن بانتظام. ونادرًا ما كنت أقابل فتية لدى أسرهم أقل مما لدى أسرتي حتى يذكروني بأني سعيد الحظ.

ولكن والدتي كانت تبذل قصارى جهدها لتذكرني بهذا، فقد انفصلت عن لولو وعادت إلى هاواي بعد وقت قصير من وصولي سعيًا وراء الحصول على درجة الماجستير في علم الإنسان. ولثلاثة أعوام عشت معها ومع مايا في شقة صغيرة على بعد مجمع سكني واحد من بوناهاو، وعشنا نحن الثلاثة على المنحة الدراسية التي تتلقاها والدتي. وفي بعض الأحيان، عندما كنت أحضر أصدقاء معي بعد انتهاء اليوم الدراسي، كانت أُمي تسمعهم وهم يعلقون على نقص الطعام في الثلاجة أو الإدارة غير المتميزة لشئون المنزل، فكانت تنتحي بي جانبًا وتخبرني أنها أم وحيدة عادت لصفوف الدراسة وترعى طفلين، ومن ثم فإن صنع البسكويت ليس على رأس قائمة أولوياتها، وفي حين أنها كانت تقدر التعليم المتميز الذي أتلقيه في بوناهاو فإنها لم تكن تخطط لتحمل أي سلوك متعال مني أو من أي شخص آخر، فهل هذا مفهوم؟

وكان ذلك مفهومًا لي، ورغم مطالبي المتكررة للاستقلال التي كنت أطلبها في بعض الأحيان بوجه عابس متجهم فقد ظللنا مقربين، وكنت أفعل ما بوسعي لمساعدتها قدر ما يمكنني؛ فأذهب للتسوق، وأغسل الملابس،

وأعنتني بأختي التي أصبحت طفلة ذكية سوداء العينين. لكن عندما أصبحت والدتي مستعدة للعودة إلى إندونيسيا للقيام بعملها الميداني، واقتрحت أن أعود معها هي ومايا وألتحق بالمدرسة الدولية هناك، رفضت على الفور؛ فقد كانت تساورني الشكوك في ذلك الوقت حيال ما يمكن لإندونيسيا أن تقدمه لي، إلى جانب أنني سئمت البدء من جديد مرة أخرى، والأهم من هذا هو أنني توصلت إلى معاهدة غير معلنة مع جديّ فحواها أنه يمكنني الذهاب للعيش معهما وهما سيتركانني وشأني مادمتُ أبقي مشاكلي بعيداً عنهما. وكان ذلك الاتفاق يناسب هدفي، وهو الهدف الذي كنت أحدهد نفسي بشق الأنفس، ناهيك عن توضيحه لهما. وبعيداً عن والدتي وجديّ كنت أمر بصراع داخلي لا يهدأ، فكنت أحاول أن أعِد نفسي لأكون رجلاً أسود في أمريكا، وفيما عدا مظهري، لم يبد أن أحداً ممن حولي يعرف بالضبط ماذا يعني هذا.

ولم تقدم لي خطابات أبي سوى بعض الخيوط التي يمكنني تتبعها، وكانت تصل على فترات متقطعة في صفحة زرقاء واحدة ويكون لسان ظرف الرسالة مطوياً بمادة لاصقة تجعل أي كتابات على الهوامش غير واضحة. كان يقول في خطاباته إن الجميع بخير، ويمتدح تقدمي في دراستي، ويؤكد أنه يرحب بي وبوالدتي وبمايا أن نحصل على المكان الجدير بنا إلى جواره وقتما نريد ذلك. ومن آن لآخر كان يُسدي لي بعض النصائح عادة في شكل حكمة لم أكن أفهمها بوضوح (مثل «مثلما يصل الماء إلى منسوبه فإنك ستصل إلى المهنة التي تناسبك.») وكنت أرد على خطاباته على الفور في صفحة عريضة مسطرة، وتشق خطاباته طريقها إلى الخزانة بجانب الصور التي تحتفظ بها أُمي له.

وكان لدى جدي عدد من الأصدقاء السود هم في الأغلب زملاء له في لعبتي البوكر والبريدج، وقبل أن أكبر بما يكفي لكيلا أهتم بأن أخرج مشاعره كنت أتركه يجرنني معه إلى واحدة من ألعابهم. كانوا رجالاً متقدمين في السن يرتدون ملابس أنيقة وأصواتهم جشة وملابسهم تنبعث منها رائحة السيجار؛ أي نوع الرجال الذين في نظرهم كل شيء له مكانه المحدد، والذين يظنون أنهم رأوا ما يكفي حتى إنه لا يجب إضاعة الكثير من وقتهم

بالحديث عنه. وكلما رأوني ربتوا على ظهري بمرح وسألوني عن حال أمي، ولكن ما إن يحين وقت اللعب لا يتفوهون بشيء سوى الشكوى لشركائهم في اللعب من النقاط التي توقعوا أن يحصلوا عليها.

كان هناك استثناء، وهو شاعر اسمه فرانك، يعيش في منزل خرب في جزء من واكيكي حالته متدهورة. وقد طارده سمعة سيئة لبعض الوقت، وكان معاصراً لريتشارد رايت ولانجستون هيوز في السنوات التي قضاها في شيكاغو، وقد أراني جدي ذات مرة بعضاً من أعماله اختبرت لتُنشر في ديوان من دواوين حركة الشعر الأسود. ولكن في الوقت الذي قابلت فيه فرانك كان يناهز الثمانين من عمره وله وجه ضخم به لغد، وشعر أفريقي طويل مجعد رمادي اللون وغير ممشط مما جعله يشبه أسداً عجوزاً أشعث الشعر. وكلما مررنا بمنزله قرأ لنا قصائده واحتسى مع جدي الويسكي الموضوع في برطمان مربى مُفرغ لهذا الغرض، وبعد انقضاء الليل يستجدي كلاهما مساعدتي في تأليف قصائد فكاهية خماسية الأبيات لا قيمة أدبية لها، وفي النهاية يتحول الحوار إلى النذب على النساء. وكان فرانك يقول لي بجدية: «إنهن سيقدنك إلى احتساء الخمر يا فتى، وإذا سمحت لهن بذلك فسيهلكنك.»

أسرتني شخصية فرانك العجوز، بكتبه ورائحة الويسكي التي تنبعث من أنفاسه، والإشارة إلى المعرفة التي اكتسبها بشق الأنفس التي أراها خلف عينيه غليظتي الجفنين وتبدو شبه مغمضة. ودائماً ما كانت الزيارات إلى منزله تتركني أشعر بعدم الارتياح بصورة غامضة، وكأني كنت أشهد صفقة تجارية غير معلنة ومعقدة بين الرجلين، صفقة لم أستطع فهمها بالكامل. وكلما اصطحبني جدي إلى وسط المدينة إلى إحدى حاناته المفضلة الموجودة في حي الدعارة في مدينة هونولولو انتابني الشعور نفسه.

وكان يقول لي وهو يغمز بعينه: «لا تخبر جدتك»، وكنا نمر أمام فتيات الليل ناعمات الجسد جامدات الملامح قبل الوصول إلى حانة صغيرة مظلمة بها جهاز فونوغراف آلي يعمل بالعملة وطاولتين للعب البلياردو. ولم يبد أن أحدًا اهتم بأن جدي هو الرجل الأبيض الوحيد في المكان، أو أنني لم

أكن إلا في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمري. وكان بعض الرجال يتكئون على بار الحانة ويلوحون ناحيتنا، وكانت ساقية الحانة — وهي سيدة ضخمة فاتحة البشرة لها ذراعان ممتلئتان عاريتان — تحضر شراب الويسكي من نوع سكوتش لجدي وتحضر كوكاكولا لي. وعندما كان لا يلعب على الطاولة أحد كان جدي يعطيني بعض الكرات ويعلمني اللعبة، لكنني عادة كنت أجلس إلى البار وساقاي تتدلى من على الكرسي العالي، وأنفخ الفقاقيع في شرابي وأنظر إلى الرسوم الإباحية المعلقة على الحوائط؛ رأيت نساء براقات وهن يرتدين جلود الحيوانات، وشخصيات ديزني في أوضاع فاضحة. وعندما يكون رودني — وهو رجل يرتدي قبعة عريضة الحواف — موجودًا هناك يتوقف إلى جانبي ليرحب بي:

«كيف يسير حال الدراسة أيها القائد؟»

«بخير.»

«إنك تحصل على امتياز، أليس كذلك؟»

«في بعض المواد.»

وكان يقول وهو يخرج عشرين دولارًا من بين كومة سميكة من النقود أخرجها من جيبه: «هذا أمر رائع، يا سالي، قدمي لهذا الرجل كوبًا آخر من الكوكاكولا» ثم يختفي في الظلام.

لا أزال أذكر الإثارة التي كنت أشعر بها في أثناء تلك الرحلات الليلية، وجاذبية الظلام وصوت كرة البلياردو، وجهاز الفونوغراف الآلي وهو يطلق أضواءه الحمراء والخضراء، والضحكات المنهكة التي كانت تتردد في أنحاء الحانة. وحتى في ذلك الوقت، ومع صغر سني فقد بدأت أشعر بالفعل أن معظم الناس في الحانة لم يكونوا هناك باختيارهم، وأن ما كان جدي يسعى إليه هناك هو رفقة أناس بإمكانهم مساعدته على نسيان مشكلاته الخاصة، أناس كان يعتقد أنهم لن يشكّلوا آراء عنه. وربما تكون الحانة قد ساعدته بالفعل على النسيان، لكنني عرفت بغريزة الطفل التي لا تخطئ أنه كان مخطئًا بشأن آراء الآخرين عنه؛ فقد كانوا هم أيضًا يشعرون أننا مجبرون على التواجد هناك. وعندما وصلت إلى المرحلة الإعدادية تعلمت أن

أعتذر عن دعوات جدي وأنا أعلم أنه مهما كان ما أسعى إليه، ومهما كان ما أحتاج إليه، فإنه يجب أن يأتي من مصدر آخر.

التليفزيون والسينما والراديو: كانت هذه هي الأماكن التي بدأت منها. وكانت ثقافة البوب حصرية على الملونين كأنها معرض من الصور التي يمكنك منها اختلاس أسلوب في السير أو الحديث أو خطوة في رقصة أو في أسلوب ارتداء الملابس. ولم يكن بإمكانني الغناء مثل مارفين جاي، لكنني استطعت تعلم جميع الخطوات الراقصة ببرنامج Soul Train، ولم يكن بإمكانني أن أحمل سلاحًا مثلما شاهدت في فيلمي Shaft أو Superfly، لكن كان بإمكانني بالطبع إطلاق السباب مثل ريتشارد براير.

وكنت أستطيع لعب كرة السلة بعاطفة شديدة تتخطى دائمًا مهارتي المحدودة. وقد جاءت هدية أبي للكريسماس عندما كان فريق كرة السلة في جامعة هاواي قد بدأ يتقدم في الترتيب القومي بفضل فريق جميع لاعبيه الخمسة من السود الذين أحضرتهم المدرسة من مختلف الولايات الأمريكية والذين تبدأ بهم المباراة. وفي ذلك الربيع اصطحبني جدي إلى إحدى مبارياتهم وشاهدت اللاعبين وهم في تمارينات الإحماء، وكانوا لا يزالون فتيانًا لكنهم بدوا لي مقاتلين ثابتي الجنان واثقين بأنفسهم، يضحكون على دعايات يلقونها فيما بينهم، أو ينظرون فوق رؤوس المعجبات اللائي يتوددن إليهم حتى يغمزوا بعيونهم للفتيات الموجودات على الخط الجانبي، أو يتناقلون الكرة من حين لآخر بيد واحدة وهم بجوار السلة، أو يصوبون كرات قوسية تجاه السلة وهم يقفزون عاليًا حتى تنطلق الصَّفارة، وكذلك قفزة لاعبي الوسط واشترك جميع اللاعبين في معركة ضارية.

قررت أن أصبح جزءًا من هذا العالم، وبدأت أتردد على ملعب بالقرب من شقة جدي بعد المدرسة، وكانت جدتي تشاهدني من نافذة غرفة نومها على ارتفاع عشرة طوابق في الملعب حتى بعد أن يسدل الليل ستائره بوقت طويل عندما كنت أقذف الكرة بكلتا يدي في البداية، ثم تطورت إلى التسجيل وأنا أقفز بطريقة غريبة، والمناورة بالكرة بسرعة بين كلتا يدي، وأستغرق في الحركات الفردية نفسها ساعة بعد ساعة. وعندما التحقت بالمدرسة

الثانوية لعبت في فريق بوناو، واستطعت أن ألعب في الجامعة حيث علمني بعض الرجال السود — معظمهم ممن يقضون أغلب أوقاتهم في قاعة الألعاب الرياضية أو ممن كانوا يوماً من ذوي الشأن — أشياء لم تكن تتعلق بالرياضة فقط؛ علموني أن الاحترام ينبع مما يفعله المرء وليس من هوية أبيه، وأنه يمكن للمرء الحديث عن أمور لإثارة حنق خصمه لكن عليه أن يُغلق فمه اللعين إذا لم يكن بإمكانه دعم ما يقول، وألا يدع أحداً يتسلل إلى أعماقه ليرى مشاعر، مثل الألم والخوف، لم يشأ أن يراها أحد. وهناك شيء آخر أيضاً، شيء لم يتحدث عنه أحد؛ طريقة للتماسك عندما تكون المباراة حرجة، والعرق الغزير يغمر اللاعبين، عندما يتوقف أفضل اللاعبين عن القلق بشأن تسجيل النقاط، وتجرف المباراة أسوأ اللاعبين، ويصبح ما يهم هو النقاط فقط لأن هذه هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على نشوة المباراة. وفي غمرة كل هذا قد يقوم اللاعب بحركة أو يمرر تمريرة تفاجئه هو شخصياً، حتى إن اللاعب الذي يتولى مراقبته لا يملك إلا أن يبتسم كما لو أنه يقول: «اللعة ...»

وعند هذه النقطة من القصة تدير زوجتي عينيها، فقد نشأت مع أخ نجم في لعبة كرة السلة، وعندما تريد أن تثير ضيق أي منا تصر على أنها تفضل أن ترى ابنها يعزف على آلة التشيلو. إنها على حق بالطبع، فقد كنت أعيش بداخل صورة مشوهة ومغالى فيها لمراهقة شاب أسود، وهي في حد ذاتها صورة مشوهة ومغالى فيها لمرحلة المراهقة الأمريكية المختالة. لكن عندما يكون من المفترض ألا يريد الأبناء اتباع خطى آبائهم المنهكة، عندما لا يكون من المفترض أن تملي متطلبات العمل في الحقل أو المصنع على المرء هويته حتى إن الكيفية التي ينبغي أن يعيش بها المرء تباع جاهزة أو توجد في مجلة، يكون الاختلاف الرئيسي بيني وبين معظم الشباب من حولي — راكبي الأمواج ولاعبي كرة القدم ومن سيصبحون عازفي موسيقى الروك آند رول على الجيتار — يكمن في العدد المحدود من الخيارات المتاحة أمامي. فكل منا اختار رداءً؛ درعاً ضد الشك. وعلى الأقل في ملعب كرة السلة كان بإمكانني إيجاد مجتمع من نوع ما له حياته الخاصة، هناك

كونت أقرب صداقات لي من الشباب البيض، في مجال لم يكن سواد البشرية فيه عيباً. وهناك قابلت راي وأترابي من الفتية السود الآخرين الذين بدعوا يتوافدون على الجزيرة رويداً رويداً، والذين كانوا مراهقين ساعدت حيرتهم وغضبهم في تكوين حيرتي وغضبي.

وكان بعضهم يقول عندما نكون وحدنا: «هكذا بالضبط سيعاملك البيض». وكان الجميع يضحكون ويهزون رءوسهم، وينطلق عقلي يبحر في سجل من المواقف المهينة: أول صبي في الصف السابع، الذي أطلق عليّ عبد أسود، ثم دموع المفاجأة التي انهمرت من عينيه وهو يسألني: «لماذا فعلت هذا؟» عندما أدميت أنفه، وذلك الذي كان يتدرب معي في دورة التنس الذي قال لي إنه يجب ألا ألس جدول المباريات الملصق بدبوس إلى لوحة النشرات لأن لوني قد يزول، وابتسامة وجهه الأحمر رفيع الشفتين عندما هددت بأن أبلغ عنه وهو يقول: «ألا يمكنك تقبل الدعابات؟» وتلك السيدة العجوز — التي تقطن في مبنى جدي نفسه — التي ثارت عندما دخلت المصعد وراءها وهرعت خارجة منه لتخبر المدير أنني ألحقها، ورفضها أن تعتذر بعد أن علمت أنني أعيش في المبنى نفسه. ومساعد مدرب فريق كرة السلة، وهو شاب نحيل من نيويورك يرتدي سترة أنيقة، الذي قال بعد مباراة لم يكن مخطئاً لها مع بعض الرجال السود الثرثارين على مقربة مني أنا وثلاثة من رفاقي في الفريق إنه ما كان يجب أن نخسر أمام حفنة من الزوج، والذي شرح لي بهدوء الحقيقة التي تبدو واضحة وهي «هناك أناس سود وهناك زوج، وهؤلاء الأشخاص زوج». كان ذلك عندما قلت له بغضب، فاجأني أنا شخصياً، أخرس.

هكذا بالضبط سيعاملك البيض، المشكلة لم تكن تتعلق بقسوة الأمر فقط، فقد علمت أيضاً أن الرجال السود قد يكونون وضيعين بل أكثر من ذلك. لقد كان نوعاً خاصاً من الغرور؛ بلادة عقل يتمتع بها أناس يكونون فيما عدا ذلك عقلاء وتدفعنا إلى الضحك بمرارة. لقد كان الأمر كما لو أن البيض لم يكونوا يعرفون أنهم قساة في المقام الأول، أو على الأقل يرون أننا نستحق ازدراءهم.

«البيض»، كان المصطلح نفسه غير مريح على لساني في البداية، فكنت أشعر أنني أجنبي ألتعثم في نطق عبارة صعبة. وفي بعض الأحيان أجد نفسي أحدث إلى راي عن «هؤلاء البيض» و«أولئك البيض»، ثم أتذكر فجأة ابتسامة أمي فتبدو لي الكلمات التي أتفوه بها غريبة وزائفة. أو أكون أساعد جدي في تحفيف الأطباق بعد العشاء وتأتي جدتي وتقول إنها ستأوي إلى الفراش، وتبرق كلمة «البيض» في ذهني مثل إشارة لامعة مضيئة، فأهدأ فجأة كما لو أن لدي أسرارًا أحتفظ بها.

وبعد ذلك، عندما أكون وحدي أحاول أن أحلل هذه الأفكار الصعبة، وكان واضحًا أن هناك بعض الأشخاص البيض الذين يمكن أن نستثنيهم من الفئة العامة التي لا نثق بها، وكان راي دائمًا ما يتحدث عن لطف جدي. ورأيت أن مصطلح أبيض أصبح عنده اختصارًا، علامة مميزة لمن يمكن أن تطلق عليه أمي شخصًا متعصبًا. ومع أنني أدركت خطورة المصطلحات التي يستخدمها، وكمن السهل أن يهوي المرء إلى هوة هذا التفكير المختل الذي ظهر على مدرب كرة السلة (الذي قلت له قبل أن أخرج من الملعب في ذلك اليوم: «هناك أشخاص بيض، وهناك جهلة حقراء مثلك.») وقد أكد لي راي أننا لن نتحدث قط عن البيض على أنهم بيض أمام البيض دون أن نعرف بالضبط ماذا نفعل، ودون أن نعرف أنه قد يكون هناك ثمن ندفعه. ولكن هل هذا صحيح؟ هل كان لا يزال هناك ثمن لندفعه؟ هذا هو الجزء المعقد، الشيء الذي لم أستطع أنا وراي أن نتفق عليه قط. وفي بعض الأحيان كنت أسمع راي وهو يتحدث إلى فتاة شقراء قابلها لتوه عن الحياة في شوارع لوس أنجلوس الفقيرة، أو أسمعه يشرح — لمدرس شاب متحمس — الدنابات التي تركتها العنصرية، وأكد أقسم أنه وراء تلك التعبيرات الجادة كان راي يغمز لي بعينه ليجعلني أشترك في الحوار. وكان وكأنه يقول لي إن غضبنا على البيض لا يحتاج إلى سبب، ولا إلى تأكيد مستقل، إنه شعور يمكن أن نجعله يظهر ويختفي وقتما نشاء. وفي بعض الأحيان — بعد أحد هذه العروض التمثيلية — كانت الشكوك تساورني حول حكمه، إن لم يكن إخلاصه. وكنت أذكره أننا لا نعيش في الجنوب في ظل قوانين الفصل العنصري المعروفة باسم

قوانين جيم كرو، ولم يُلق بنا في مشروع إسكان ليس به وسائل تدفئة في هارلم أو برونكس، إننا في هاواي اللعينة، نقول ما نشاء ونأكل حيثما نشاء ونجلس في مقدمة الحافلة التي يستقلها الجميع. ولا يعاملنا أي من أصدقائنا البيض، أمثال جيف وسكوت في فريق كرة السلة، بطريقة مختلفة عن تلك التي يتعاملون بها مع بعض. إنهم يحبوننا ونحن نحبههم، بل ونصفهم تقريباً يبدو وكأنه يود لو أنه أسود اللون، أو على الأقل مثل الدكتور جيه. وكان راي يعترف بصحة هذا، ومن ثم فربما يمكننا أن نمنح موقف الزنجي السيئ هذا بعض الراحة، وندخره حتى نحتاجه حقاً.

فكان يهز رأسه ويقول: «موقف؟ تحدث عن نفسك فقط.»

وكنْتُ أعرف أن راي سيشهر ورقته الرابعة، تلك الورقة التي يُحسب له أنه نادراً ما يستخدمها؛ ورقة أنني، رغم كل شيء، مختلف وربما أكون مشتتاً بي، ليست لدي فكرة عن هويتي الحقيقية، ولأنني لم يكن لدي استعداد للمخاطرة بكشف نفسي، كنت أنسحب بسرعة وأتحدث عن موضوع أكثر أماناً لي.

فربما لو كنا نعيش في نيويورك أو لوس أنجلوس، كنت سأستطيع استيعاب قواعد اللعبة الخطيرة التي نلعبها سريعاً. وتعلمت أن أنتقل جيئةً وذهاباً بين العالمين الأبيض والأسود اللذين كنت أعيش فيهما، وتفهمت أن كلاً منهما له لغته وعاداته والمعاني الخاصة به، وكنْتُ مقتنعاً أنه ببعض المجهود في الترجمة بين العالمين من جانبي يمكن في النهاية أن يلتحم العالمان. ومع ذلك فقد استمر الشعور أن هناك شيئاً ليس على ما يرام يراودني، جهاز إنذار ينطلق كلما ذكرت فتاة بيضاء أثناء حديثها مدى حبها لستيفي وندر، أو عندما سألتني سيدة في المتجر هل ألعب كرة سلة، أو عندما أخبرني ناظر المدرسة أنني لطيف. لقد كنت أحب ستيفي وندر، وكنْتُ أحب كرة السلة، وبذلت قصارى جهدي كي أكون لطيفاً طوال الوقت؛ فلماذا إذن كانت مثل هذه التعليقات تثير قلقي؟ كنت أشعر أن هناك خدعة ما، مع أنني كنت لا أفهم ما هي تلك الخدعة، ومن الذي يقوم بها، ومن الذي يُخدع بها.

وفي أحد أول أيام الربيع تقابلت أنا وراي بعد المدرسة وبدأنا نسير في اتجاه المقعد الحجري الذي يحيط بشجرة تين البنغال الضخمة في حرم مدرسة بونا هو، وكان يطلق عليه «مقعد الكبار»، لكنه كان في الواقع نقطة تجمع جماعات الطلبة في المدرسة الثانوية؛ هواة الرياضة، وكبار المشجعين، وهواة الذهاب إلى الحفلات ومعهم التابعون لهم والمولعون بالمزاح، والمرافقات اللائي يتدافعن للحصول على مكان على الدرجات الدائرية. وكان أحد الطلاب في السنة النهائية، وهو مدافع عنيد اسمه كيرت، هناك وبمجرد أن رأنا صاح بصوت عالٍ: «مرحباً راي! ما الأخبار يا رجل!»

فاتجه إليه راي وضرب يده براحته الممتدة، لكن عندما أعاد كيرت التحية لي لوحث له أن يتركني وشأني.

وسمعته يقول لراي عندما سرت مبتعداً: «ماذا به؟» وبعد بضع دقائق لحق بي راي وسألني ما الأمر.

«هؤلاء الناس لا يفعلون شيئاً سوى السخرية منا.»

«ما الذي تتحدث عنه؟»

«كل ذلك الهراء الذي يتحدثون به.»

«مَن الآن الذي أصبح السيد الحساس إذن؟ كيرت لا يعني شيئاً بهذا.»

«إذا كان هذا ما ترى، إذن ...»

وفجأة انفجر راي غضباً وقال: «انظر، إنني أحاول أن أتعايش فقط، مثلما رأيته تتعايش وتتحدث عن الرياضة التي تمارسها مع المدرسين عندما تحتاج لأن يقدم لك أحدهم معروفاً. كل تلك الأمور مثل «حسناً يا أنسة سنوتي اللعينة، أظن أن القصة مثيرة للاهتمام، فقط إذا أمكن أن أحصل على يوم واحد إضافي لأنتهي من ذلك البحث، فسأقبل يدك البيضاء اللعينة.» إنه عالمهم، أليس كذلك؟ إنهم يملكونه ونحن نعيش فيه، والآن اغرب عن وجهي بحق الجحيم.»

وبحلول اليوم التالي كانت حرارة نقاشنا قد تبددت، واقترح راي أن أدعو صديقينا جيف وسكوت إلى حفل يقيمه راي في منزله في العطلة الأسبوعية. ترددت لوهلة، فإننا لم ندعُ أصدقاء بيض إلى حفل للسود قط،

لكن راي أصر، ولم أجد سبباً مقنعاً للاعتراض، وكذلك جيف وسكوت، فقد وافق كلاهما على حضور الحفل مادمت أوافق أن أقلهما. وهكذا، بعد أن أنهينا إحدى مبارياتنا في مساء يوم السبت، ركبنا نحن الثلاثة سيارة جدي القديمة من طراز فوردر جراندنا وشققنا طريقنا إلى ثكنات سكوفيلد باراكس على بعد ثلاثين ميلاً تقريباً خارج المدينة.

عندما وصلنا كان الحفل قد بدأ، فتوجهنا لنحصل على بعض المرطبات. لم يبد أن حضور جيف وسكوت يسبب أي اضطراب، وقد قدمهما راي لمن في الغرفة وبدءوا يتحدثون قليلاً مع بعض الأشخاص، واصطحبا فتاتين للرقص معهما. لكني رأيت بوضوح أن المشهد قد أذهل صديقي البيض، فكانا يتسلمان كثيراً، وينتحيان جانباً في أحد الأركان، وكانا يومئذ برأسيهما من حين لآخر بخجل وعدم ارتياح لضربات الموسيقى، ويقولان: «معذرة» كل بضع دقائق. وبعد ساعة تقريباً طلبا أن أصطحبهما إلى المنزل.

وعندما ذهب إلى راي لأخبره أننا سنغادر، قال بصوت عال محاولاً التغلب على صوت الموسيقى: «ما الأمر؟ لقد بدأ الحفل لتوه يصل إلى أوجه.» «أظن أنهما لا يتأقلمان.»

والتقت عينا، ووقفنا هناك لبرهة طويلة من الوقت، والضوضاء والضحكات تدوي من حولنا. ولم يبد في عيني راي أي أثر للرضا أو أية إشارة لخيبة الأمل؛ مجرد نظرة ثابتة من عين لا تطرف مثل عين ثعبان. وفي النهاية مد لي يده فأمسكت بها، وعينا لا تزال ثابتتان ثم قال: «نلتقي لاحقاً إذن»، وسحب يده من يدي ورأيته وهو يبتعد في الزحام ويسأل عن الفتاة التي كان يتحدث إليها قبل بضع دقائق.

وفي الخارج كان الهواء لطيفاً، والشارع خاوياً تماماً، فيما عدا الارتجاج الخفيف الذي يسببه مذياع راي، والأضواء الزرقاء التي تنير بصورة متقطعة في نوافذ المنازل ذات الطابق الواحد التي تمتد عبر الشارع الجانبي النظيف، وظلال الأشجار تمتد عبر ملعب لكرة البيسبول. وفي السيارة وضع جيف ذراعه على كتفي، وبدا فجأة يشعر بالأسف البالغ والارتياح في آن واحد، وقال: «أتعرف لقد علمني هذا الحفل شيئاً. أقصد، أصبحت أعرف مدى

صعوبة الأمر عليك وعلى رأي في بعض الأحيان في حفلات المدرسة ... إنكم أنتم فقط السود.»

فأجبت: «آه، نعم»، وأراد جزء مني أن يلكمه. وبدأنا نقطع الطريق تجاه المدينة، وفي هذه الفترة من الصمت بدأ عقلي يعيد عرض كلمات رأي في ذلك اليوم مع كيرت، والمناقشات التي دارت بيننا قبل ذلك، وأحداث تلك الليلة. وفي الوقت الذي أوصلت فيه صديقي بدأت أرى خريطة جديدة للعالم، خريطة مخيفة في بساطتها، وخانقة في المعاني التي تتضمنها. لقد كنا دائماً نلعب في ملعب الرجل الأبيض، ووفقاً لقواعده، هذا ما قاله رأي. وإذا أراد الناظر أو المدرب أو المدرس أو كيرت أن ييصق على وجهك يمكنه هذا لأنه يتمتع بسلطة ليست لديك. وإذا قرر ألا يفعل شيئاً من ذلك، أي إذا عاملك على أنك إنسان أو دافع عنك، فهذا لأنه يعرف أن الكلمات التي تتفوه بها، والملابس التي ترتديها، والكتب التي تقرأها، وطموحك ورغباتك هي في الأساس ملك له. ومهما كان ما يقرر أن يفعله فهذا قراره وليس قرارك، وبسبب هذه السلطة الجوهريّة التي يمتلكها عليك، ولأنها ولدت قبل دوافعه الشخصية ونزعاته وستستمر بعدها، فإن أي تمييز بين الإنسان الأبيض الطيب والشرير ليس له معنى كبير. وفي الحقيقة لا يمكنك أن تثق أن كل شيء افترضت أنه تعبير عن نفسك الحرة كإنسان أسود — مثل الدعابات والأغاني والتمريرات من وراء الظهر في مباريات كرة السلة — جميعها قد اخترتها بنفسك. لقد كانت هذه الأشياء على أفضل تقدير ملجأ أو، على أسوأ تقدير، فخاً. وباتباع هذا المنطق المثير للجنون فإن الشيء الوحيد الذي يمكنك اختياره ليكون ملكاً لك هو الانسحاب إلى عالم أصغر فأصغر من الغضب، حتى لا يصبح معنى كونك أسود إلا إدراك أنك بلا سلطة واعتراف بهزيمتك. والمفارقة الأخيرة هي أنه إذا رفضت هذه الهزيمة وتحدثت بغضب منتقداً أسرك، فستجد لديه اسماً لهذا بإمكانه أن يسجنك في قفص آخر؛ كأن يصفك بأنك مصاب بجنون الاضطهاد أو عدواني أو عنيف أو زنجي.

وعلى مدار الشهور القليلة التالية، تطلعت إلى ترسيخ هذا الكابوس، فجمعت كتبًا من المكتبة، كتب لبالدوين وإليسون وهيوز ورايت ودوبويس. وفي المساء كنت أغلق باب غرفتي وأخبر جدي وجدتي أن لدي واجبًا منزليًا يجب أن أنتهي منه. وأجلس هناك وأصارع الكلمات، محتجزًا في جدال مفاجئ يائس أحاول أن أتصالح مع العالم كما وجدته عند ميلادي، لكن لا مناص؛ ففي كل صفحة من كل كتاب، سواء في الكتب التي تتحدث عن شخصية الزنجي الشرير مثل بيجر توماس أو شخصيات أخرى مجهولة، كنت أجد نفس الأسى، نفس الشك؛ ازدراء للذات لم تستطع السخرية ولا الفكر تغيير مساره. وحتى علم دوبويس وحب بالدوين وخفة ظل لانجستون استسلموا في النهاية إلى قوته المدمرة، فكل من هؤلاء الرجال وجد نفسه في النهاية مجبرًا لأن يشك في قدرة الفن على إنقاذه، وكل منهم وجد نفسه في النهاية مجبرًا على الانسحاب؛ أحدهم إلى أفريقيا والآخر إلى أوروبا والثالث إلى أعماق هارلم، لكنهم جميعًا انتهى بهم الحال إلى نفس الفرار المنهك، جميعهم تملك منهم التعب، جميعهم يشعرون بالمرارة، جميعهم تطاردتهم الشياطين. كانت سيرة مالكولم إكس الذاتية وحدها هي التي قدمت شيئًا مختلفًا؛ فكانت محاولاته المتكررة لتكوين الذات تخاطبني، والشعر الصريح في كلماته وإصراره الطبيعي على نيل الاحترام يَعدنان بنظام جديد وثابت، نظام عسكري في نظامه يصاغ من خلال القوة المجردة للإرادة. وقررت أن جميع الأشياء الأخرى، مثل الحديث عن الشياطين زرقاء العيون وسفر الرؤيا، كانت عارضة على هذا البرنامج، فقد كانت أفكارًا دينية بدا أن مالكولم نفسه قد هجرها في نهاية حياته. ومع ذلك، حتى عندما تخيلت نفسي أتبع نداء مالكولم، فقد منعني سطر واحد في الكتاب من هذا؛ فقد تحدث في هذا السطر عن أمنية كانت ترواه في يوم من الأيام، أمنية أن يتخلص، عن طريق العنف، من الدماء البيضاء التي تجري في عروقه. وعرفت أن أمنية مالكولم تلك لم تكن عارضة قط، وعرفت أيضًا أن الرحلة إلى احترام الذات للدماء البيضاء لا تتراجع أبدًا إلى مجرد فكرة مجردة. وتركت أنا لأتساءل ماذا أيضًا سأمزق إذا ما تركت والدتي وجدِّي عند حدود مجهولة، ومتى أفعل هذا.

وأيضًا إذا كان اكتشاف مالكولم الذي توصل إليه قرب نهاية حياته أن بعض البيض قد يعيشون إلى جواره إخوة في الإسلام، يشع بعض الأمل في احتمال التوصل إلى مصالحة في النهاية، فإن ذلك الأمل بدا أنه لن يتحقق إلا في المستقبل البعيد وعلى أرض بعيدة. وفي الوقت نفسه نظرت لأرى من أين سيأتي هؤلاء الأشخاص الذين يرغبون في العمل من أجل هذا المستقبل واستيطان هذا العالم الجديد. وفي أحد الأيام، بعد إحدى مباريات كرة السلة في صالة الألعاب الرياضية بالجامعة، بدأت بالصدفة أنا وراي حديثًا مع رجل طويل ونحيل اسمه مالك كان يلعب معنا من حين لآخر. ذكر مالك أنه كان من أتباع «أمة الإسلام» ولكن منذ أن مات مالكولم وانتقاله إلى هاواي لم يعد يذهب إلى المسجد أو الاجتماعات السياسية، مع أنه كان لا يزال ينشد السكينة في صلاته المنفردة. ولا بد أن أحد الشبان إلى جوارنا قد استمع إلينا، إذ إنه انحنى إلى الأمام وعلى وجهه تعبير الرجل الحكيم.

«إنكم تتحدثون عن مالكولم أليس كذلك؟ إن مالكولم يصور الحقائق كما هي، لا شك في هذا.»

فقال شاب آخر: «نعم، لكني سأقول لكم شيئًا، إنكم لن ترونني أنتقل إلى غابة أفريقية في أي وقت قريب، أو إلى أية صحراء لعينة أجلس على سجاد مع بعض العرب. كلا يا سيدي، ولن تراني أتوقف عن تناول اللحوم.»

«يجب أن نحصل على بعض اللحوم.»

«والعلاقات الحميمة أيضًا، ألم يتحدث مالكولم عن رفض العلاقات

الحميمة؟ هل عرفتَ الآن أن هذا لن يجدي.»

لاحظت أن راي يضحك فنظرت إليه عابسًا وقلت: «ما الذي تضحك عليه؟ إنك لم تقرأ شيئًا لمالكولم قط، ولا تعرف حتى ماذا يقول.»

فجذب راي كرة السلة من يدي واتجه إلى الحافة المقابلة وصاح: «إنني لا أحتاج إلى كتب لتخبرني كيف أكون أسود.» فبدأت أجيب عليه ثم استدردت إلى مالك متوقعًا بعض عبارات المساندة منه، لكن الرجل المسلم لم يقل شيئًا، وارتسمت على وجهه النحيل ابتسامة حاملة.

بعد ذلك قررت أن أتكتّم رأيي، وتعلّمت أن أخفي انفعالي. ومع ذلك، بعد بضعة أسابيع استيقظت على صوت جدال في المطبخ؛ صوت جدتي الذي كان لا يكاد يُسمع ويتبعه صوت جدي العميق وهو يتذمر. ففتحت الباب ورأيت جدتي وهي تدخل إلى غرفة نومها لترتدي ملابسها وتذهب إلى العمل، فسألتها ماذا حدث.

«لا شيء، كل ما في الأمر أن جدك لا يريد أن يقلني إلى العمل هذا الصباح.»

وعندما دخلت إلى المطبخ كان جدي يغغم متذمرًا، وصب لنفسه كوبًا من القهوة وأخبرته أنني مستعد لأن أقل جدتي إلى العمل إذا كان متعبًا، وكان ذلك عرضًا جريئًا لأنني لم أكن أحب الاستيقاظ مبكرًا، وقد قابل جدي عرضي بأن قطب جبينه.

«ليست هذه هي المشكلة، إنها تريد أن تجعلني أشعر بالذنب.»

«أنا واثق أن هذا ليس هو الهدف يا جدي.»

فارتشف من قهوته ثم قال: «بل هذا هو الهدف بالطبع، إنها تستقل الحافلة منذ أن عملت في المصرف، وكانت تقول إنها مريحة. والآن فقط لأنها منزعة قليلًا، تريد أن تغير كل شيء.»

ظهرت جدتي بقوامها القصير في الردهة تنظر إلينا من خلف نظارتها ذات العدسات ثنائية البؤرة، وقالت: «هذا ليس صحيحًا يا ستاني.»

فاصطحبتها إلى الغرفة الأخرى وسألتها عما حدث، فقالت: «رجل طلب مني نقودًا بالأمس عندما كنت بانتظار الحافلة.»

«هل هذا كل ما في الأمر؟»

ضمت شفيتها في غضب ثم قالت: «كان عدوانيًا للغاية يا باري. عدواني للغاية، أعطيته دولارًا وظل يطلب مني المزيد. وأظن أنه إذا لم تكن الحافلة قد وصلت، كان من الممكن أن يضربني على رأسي.»

فعدت إلى المطبخ، وكان جدي يغسل الفئجان مديراً ظهره لي، فقلت: «لم لا تتركني أقلها أنا، إنها تبدو شديدة الغضب؟»

«من متسول؟!»

«نعم، أعلم، لكن أغلب الظن أنه كان من المخيف لها أن ترى رجلاً ضخماً يعترض طريقها، لا مشكلة في هذا.»

استدار جدي إليّ، فرأيت أن جسده يرتجف وهو يقول: «بل مشكلة كبيرة، إنها مشكلة كبيرة في نظري. لقد ضايقها رجال أكثر من قبل. هل تعلم لماذا هي خائفة بشدة هذه المرة؟ سأخبرك أنا لماذا، قبل أن تدخل أخبرتني أن الرجل كان أسود.» قال الكلمة الأخيرة وهو يهمس ثم استأنف: «هذا هو السبب الحقيقي في انزعاجها، وأنا لا أظن أن هذا صحيح.»

كان وقع هذه الكلمات عليّ وكأن أحداً لكمني في معدتي، فارتجف جسدي كي أستعيد رباطة جأشي. وقلت له في أكثر نبرة استطعت أن أجعلها ثابتة إن مثل هذا السلوك يثير ضيقي أنا أيضاً، وأكدت له أن مخاوف جدي ستنتهي وأنا يجب أن نقلها إلى العمل في الوقت الحالي. ترك جدي جسده يسقط على مقعد في غرفة المعيشة وقال إنه آسف لأنه أخبرني. وأمام عيني رأيت أنه قد أصبح صغير الحجم كبير السن حزين الوجه. فوضعت يدي على كتفه، وأخبرته أن كل شيء على ما يرام وأنني أتفهم الموقف.

ظللنا هكذا لعدة دقائق في صمت مؤلم. ثم أصر في النهاية على أن يقل جدتي إلى عملها، وجاهد لينهض من على مقعده ويرتدي ملابسه. وبعد أن غادرا، جلست على حافة فراشي وفكرت في جديّ، فكثيراً ما ضحياً من أجلي، وعلقا جميع آمالهما التي لم تتحقق على نجاحي، ولم يمنحاني أبداً سبباً كي أشك في حبهما لي، وكنت أثق بأنهما لن يقدموا سبباً لهذا الشك قط. ومع ذلك فقد علمت أن الرجال الذين كان من الممكن بسهولة أن يكونوا إخوتي يمكن كذلك أن يثيروا مخاوفهما.

في تلك الليلة قدت السيارة إلى وايكيكي ماراً بالفنادق المضاءة بألوان براقّة باتجاه قناة ألّا-واي. استغرقت بعض الوقت كي أتعرف على المنزل، بشرفته المتهدمة وسطحه ذي الانحدار البسيط. وفي الداخل كانت الأنوار مضاءة، ورأيت فرانك وهو يجلس على مقعده الضخم المريح، وعلى حجره ديوان للشعر ونظارته التي يقرأ بها منزلقة قليلاً على أنفه. جلست في السيارة

أراقبه لبعض الوقت وفي النهاية خرجت من السيارة وطرقت الباب، ورفع العجوز عينيه قليلاً وهو ينهض كي يفتح مزلاج الباب، وكان قد مر ثلاث سنوات منذ رأيته آخر مرة.

سألني: «أتريد شرباً؟» فأومأت له بالإيجاب ورأيته وهو يخرج زجاجة من الويسكي وكوبين بلاستيكيين من خزانة المطبخ. لم يتغير شكله كثيراً، فقط ازداد شاربهُ بياضاً وهو يتدلى مثل نبات لبلاب ميت فوق شفته العليا الغليظة، وبنتطونه الجينز القصير به مزيد من الثقوب ومربوط عند خصره بشريط غليظ.

«كيف حال جدك؟»

«إنه بخير.»

«ماذا تفعل هنا؟»

لم أكن واثقاً، فأخبرت فرانك جزءاً مما حدث، فأومأ برأسه وسكب لكل منا كأساً، وقال: «إن جدك لطيف. هل تعلم أننا نشأنا على بعد خمسين ميلاً من بعض؟»

هزرت رأسي نائفاً.

«هذه حقيقة؛ فقد كان كل منا يعيش بالقرب من ويتشيتا، ولكننا لم نعرف بعضنا بالطبع، وعندما كبر هو بما يكفي ليتذكر شيئاً كنت أنا قد رحلت قبل وقت طويل. ومع ذلك فقد أكون رأيت بعض أهله، ربما أكون مررت بهم في الشارع، وإذا كان ذلك قد حدث فكان يجب علي أن أنزل من على الرصيف كي أفسح لهم الطريق. هل أخبرك جدك عن شيء من هذا القبيل من قبل؟»

ألقيت ما تبقى من ويسكي في حلقي، وهزرت رأسي مرة أخرى.

فقال فرانك: «ولا أعتقد أنه كان سيفعل. إن ستانلي لا يحب الحديث عن ذلك الجزء من حياته في كانساس كثيراً؛ فهذا لا يجعله يشعر بالارتياح. وقد أخبرني ذات مرة عن فتاة سوداء استأجروها للعناية بوالدتك، أظن أنها كانت ابنة قس. وأخبرني كيف أصبحت جزءاً من العائلة، هذا هو ما

يتذكره عنها، فهذه الفتاة تذهب للعناية بأطفال الآخرين، ووالدتها تغسل ملابس الآخرين ... جزء من العائلة.»

هذه المرة مددت أنا يدي إلى الزجاجة كي أصب منها بنفسي. ولم يكن فرانك يراني فقد كانت عيناه مغمضتين ورأسه تستند إلى ظهر مقعده ووجهه الضخم المتجدد مثل نقش حجري. ثم قال في هدوء: «لا يمكنك أن تلوم ستانلي على ما هو عليه، إنه رجل طيب بطبيعته، لكنه لا يعرفني حقًا، ليس أكثر من معرفته بتلك الفتاة التي كانت ترعى والدتك، ولا يستطيع أن يعرفني، ليس كما أعرفه أنا. ربما يستطيع بعض سكان هاواي ذلك، أو الهنود في تلك المناطق المخصصة لهم، فقد رأوا آباءهم يتعرضون للإهانة، وأمهاتهم تنتهك حرماتهن، لكن جدك لن يعرف أبدًا كيف يشعر المرء في مثل هذه المواقف؛ لهذا يمكنه أن يأتي إلى هنا ويحتسي الويسكي ويسقط نائمًا على الكرسي الذي تجلس أنت عليه الآن، ويغط في سبات عميق. وهذا شيء لا يمكنني أن أفعله في منزله أبدًا أبدًا، مهما كان ما أشعر به من تعب، فعلي أن أراقب سلوكي، يجب أن أكون حذرًا حفاظًا على حياتي.»

فتح فرانك عينيه وقال: «ما أحاول أن أقوله لك هو أن جدتك لديها الحق في أن تشعر بالخوف، وهي على حق بالضبط مثل ستانلي، إنها تفهم أن السود لديهم سبب كي يشعروا بالكراهية، هذه هي الحقيقة. وإن كنت أتمنى — من أجلك — أن يكون الحال غير الحال، لكن هذه هي الحقيقة، لذا فيمكنك أن تعتاد عليها أنت الآخر.»

أغمض فرانك عينيه، وبدأت أنفاسه تتباطأ حتى بدا أنه خلد إلى النوم. فكرت في إيقاظه، ثم قررت ألا أفعل وسرت عائدًا إلى السيارة. شعرت بالأرض تهتز تحت قدمي وكأنها مستعدة لأن تنشق في أية لحظة، فتوقفت وأنا أحاول أن أتماسك، وأدركت لأول مرة أنني وحدي تمامًا.